
سجين زندا

سجين زندا (رواية)

أنتوني هوب

تقديم ومراجعة: خالد عوض

الطبعة: ٢٠٢٣



العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور - الهرم – الجيزة - مصر

هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com

E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

أنتوني هوب. – تقديم ومراجعة: خالد عوض – سجين زندا

– الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢

١٢٩ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٩ – ٢ – ٦٨٤٦٤ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٢٧٣٥٠ / ٢٠٢٢

أنتوني هوب

سجين زندا

رواية

تقديم ومراجعة

خالد عوض

تقديم

رواية "سجين زندا"، هي واحدة من أشهر الروايات الكلاسيكية في الأدب الإنجليزي، وتدور أحداثها في دولة خيالية تسمى روريتاريا، وتصور الصراع على الحكم فيها، وتأثير ذلك على حياة الناس وعلى مصير المملكة وشعبها، وقد تم تحويل تلك الرواية إلى عدة أفلام سينمائية، كما أنها تعتبر من الروايات التعليمية التي تدخل ضمن المناهج التعليمية في فصول الأدب الإنجليزي في عدد من الدول منها مصر ودول عربية أخرى.

أما مؤلفها المشهور باسم "أنتوني هوب" الذي كان يوقع به أعماله، روائي بريطاني شهير، اسمه الحقيقي، أنتوني هوب هوكينز، وُلدَ في ٩ فبراير ١٨٦٣م وتوفي في ٨ يوليو ١٩٣٣، عرف بروايتيه: سجين زندا (١٨٩٤م) وتتمتها أو الجزء الثاني منها باسم "روبرت الهنتزوي" (١٨٩٨م)، اللتان تروان في البلد المتخيل روريتانيا وقد فتحت سجين زندا الباب لظهور نوع قصصي عُرِفَ بالرومانسية الروريتانية، كما أَلهمتْ زندا الكثير من الأعمال الروائية والسنيمائية.

وقد نشأ أنتوني – وهو أصغر أخوته– وتعلم في المدرسة الكنسية التي كان والده كاهنا فيها، إلى أن سجل في كلية مارلبورو حيث حصل فيما بعد على منحة دراسية في كلية باليول بجامعة أكسفورد في عام ١٨٨١م، ولعب لنادي كرة القدم بالكلية، وتخرج بمرتبة الشرف عام ١٨٨٦م، ثم أصبح أحد رؤساء اتحاد أوكسفورد الليبراليين القلائل.

كان أنتوني يتدرب على ممارسة المحاماة، وكان لديه متسع من الوقت

للكتابة لقلة ما يشغله في السنوات الأولى، فظهرت أعماله بشكل متتابع، ولكنه اضطر إلى دفع نفقات نشر روايته الأولى (A Man of Mark) في عام ١٨٩٠م، التي تشبه سجين زندا إلى حد ما، ثم تتالت الروايات والقصص القصيرة مثل (Father Stafford) وروايته (The Dolly Dialogues) التي أقل ما يقال عنها ناجحة، كما كتب سلسلة من القصص القصيرة جدا لصحيفة ويستمنسر جازيت ثم جُمعت في كتاب اسمه حوارات دولية، وهو أول نجاح يحققه ككاتب Mr Witt's Widow، ثم جاءت فكرة كتابة مؤامرة سجين زندا في آخر عام ١٨٩٣م عندما كان يمشي في أزقة لندن، حققت هذه الرواية نجاح باهرا فأصبح بطلها البارع رودلف راسندل شخصية قصصية معروفة، وقد تُرجمت للعديد من اللغات ومنها العربية، جعل هذا النجاح أنتوني يترك مهنته المستقبلية المحاماة ليصبح كاتبا متفرغا، لكنه لم يحقق نجاحا فنيا كاملا كالذي حققه في سجين زندا، وشارك أنتوني في كتابة أول النصوص المسرحية لرواية "سجين زندا"، بدأ أنتوني كتابة تكملة سجين زندا تحت عنوان روبرت الهنتزوي بشكل متسلسل في مجلة بول مول في عام ١٨٩٥م، وتلتها رواية قلب الأميرة أوزرا في ١٨٩٩م، استمر أنتوني بكتابة العديد من الروايات، ولم يكتفي بذلك بل وكتب مسرحيات عديدة، وأنتخب في عام ١٩٠٠م رئيسًا لجمعية المؤلفين، ومنح وسام فارس في عام ١٩١٨م لمساهمته في الدعاية الحكومية أثناء الحرب العالمية الأولى، ونشر سيرة له أسماها (Memories and Notes) في عام ١٩٢٧م، ثم توفي في منزله الريفي بمقاطعة سري عن عمر ناهز السبعين عاما، وذلك بعد إصابته بمرض سرطان الحنجرة.

سجين زندا

تدور أحداث القصة في مقاطعة تعرف باسم روريتانيا، يحكمها ملك شجاع وحكيم، ولكن بعد ذلك يموت الملك فتتعرض المملكة للمشاكل حيث يبقى الوريث القانوني للعرش وهو الابن الأكبر للملك الذي عاش معظم حياته في الخارج، ومن ثم فهو معروف بشكل سيء بين شعب روريتانيا، وهناك خصمه شقيقه الأصغر دوق ستريلسو، الذي يريد أن يبعد أخيه ليجلس هو على عرش روريتانيا، وتبدأ الاستعدادات للتتويج، ودعوة ضيوف أجانب مهمين ويحدد موعد التتويج، فتبدأ أحداث الرواية.

وقد تميزت الرواية بكل ما يُميز الأدب الكلاسيكي من جمال اللغة وفخامتها، ووجود جو من الفروسية العامة التي تشتمل عليها الأحداث دائمًا، وخلت كذلك من كل ما يعيب هذا النوع من الأدب، وهو الإملال والتطويل فيما لا داعي له ولا يخدم الحدث الرئيسي، لذا تجد أحداث الرواية لاهثة لا تحوي أي فقرة تشعر بكونها دخيلة على الأحداث، بل تجد أنك تهرول مسرعًا لتنتقل من حدث إلى آخر ومن موقف إلى آخر، ما خلت الرواية من أي وصف زائد كما اعتادت معظم الروايات في هذا العصر.

وأكثر ما يُميز الرواية هو رسم الشخصيات؛ فالشخصيات هنا أتت ثلاثية الأبعاد غالبًا بعيدة عن الشخصيات المسطّحة، فتجد رودولف رغم الفروسية الغالبة عليه، ولكن أفكاره تؤكد لك أنه بشري عادي يحوي داخلة كافة ألوان الطيف، لم يصوّر هوب شخصية بلاك مايكل على كونها الشخصية الشريرة التقليدية، بل يصبغ صفات إنسانية عليه ويجعلك

تتعاطف أحيانًا مع مايكل كشخص خسر كل شيء، والحقيقة أن دور مايكل كفالين (شرير العمل) ليس هو الدور الرئيسي فإن كان هو خصم رودولف على المستوى العام، فإن شخصية (روبرت أوف هنتزو) هو الفالين الحقيقي على مستوى الأحداث، فهو الشخصية الأكثر سحرًا، وقد قدم حتى شر شخصية (روبرت) الخالص بشكل ساحر وساخر يؤثر بشدة، ويجعلك تهيم حبًا بجودة كتابة هذه الشخصية، هناك أيضًا أنطونيت دي موبان، وهي شخصية ثلاثية الأبعاد تمامًا، فهي الإنسانة الخيّرة من داخلها ولكن دفعها حب الدوق مايكل إلى أن تتورط في هذه المؤامرة ضد الملك، ثم يدفعها ذات الحب إلى أن تساعد رودولف في محاولاته لإفشال خطة حبيبها؛ كي لا يظفر بالمُلك وبالأميرة فلافيا أيضًا فتفقده هي، ستجد أن شخصيتين ككولونيل سابت وفريتس فون تارلنهايم مرسومتان بشكل بديع فليس لمجرد أنهما مساعدا الملك وجندياه، فإنه يجب أن تتطابق شخصيتاهما، بل ستجد شخصية الكولونيل الذي يكبت مشاعره داخله حتى لا يظهر منه سوى شخصيته العسكرية شديدة الولاء للملك، بينما فريتس رغم كونه جنديا هو الآخر فإنه يتمتع بشخصية رقيقة متعاطفة وإن كان معدن الجندي يظهر وقت الشدة.

وقد قدمت هوليود هذه الرواية عدة مرات، فقد قدمتها في السينما الصامتة عام ١٩١٣ ثم عام ١٩٢٢، كما عادت وقدّمتها بالأبيض والأسود عام ١٩٣٧ وقدّمت نسخة أخرى بالألوان عام ١٩٥٢، وفي عام ١٩٧٩ قُدمت الرواية في فيلم جديد ذي طابع كوميدي، كما قامت بريطانيا بتقديم فيلم صامت عن الرواية عام ١٩١٥، وقامت بتقديمها في مسلسل ١٩٨٤.

هذا وتعتمد رواية "سجين زندا" وهي أشهر أعمال "أنتوني هوب" تعتمد الرواية على فكرة خيالية بعض الشيء، وهي تطابق الشبه بين شخصين، فالسيد رودولف راسيندل (الإنجليزي الجنسية سليل العائلة الإنجليزية العريقة وأخ لسياسي إنجليزي بارز) قرر أن يزور روريتانيا؛ وهي دولة أوروبية من صنع خيال الكاتب حيث تربط أسرته بها قصة قديمة، حيث حدثت علاقة غير شرعية بين إحدى جداته في شبابها الكونتس "إميليا" وبين ولي عهد روريتانيا "الألفبرجي" النسب، أدى ذلك لنشوء بعض الأفراد من عائلة راسيندل يتميزون بأنف مميز وخصلة شعر حمراء، هذه الفضيحة التاريخية – التي يتمنّى الجميع أن تسدل عليها ستائر النسيان– كانت السبب الدائم في منع أسرة رودلف له من زيارة روريتانيا، فهو يتمتع بالأنف وخصلة الشعر معًا.

ولكن رودلف قرر أن يذهب في زيارة سرية إلى روريتانيا؛ ليحضر حفل تنصيب الملك الألفبرجي الجديد، ونظرًا لتوجه أنظار أوروبا كلها لهذا التتويج وعدم وجود أي مكان شاغر في سترلزو عاصمة روريتانيا، فقد قرر روبرت أن ينزل في مدينة زندا التي تسبق العاصمة، وهنا تبدأ القصة، فأثناء رحلته في غاب زندا يقابل الملك وهو يتريض ومعه اثنان من وزرائه: الكولونيل سابت، وفرتس فون تارلنهايم، وهنا يحضر الملك لتقع الدهشة على الجميع، فرودولف والملك نسختان متطابقتان تقريبًا في الشبه وحتى في الاسم، وبعد تخطّي الدهشة والتعارف يصرّ الملك على دعوة هذا القريب البعيد إلى العشاء في كوخه الصيفي في زندا.

ويعرف رودولف هناك كيف أن للملك أخاً آخر أصغر من زواج خامل

لأبيه، وهو الدوق "بلاك مايكل"، وأن هذا الأخ يطمع في أن يُتوّج هو ملكًا بدلاً من أخيه رودولف، بل يطمع أيضًا في أن يتزوّج من ابنة عمه الأميرة "فلافيا" الجميلة، والتي سيتزوجها مَن يُتوّج ملكًا على روريتانيا بعد أن شغفته الأميرة حبًا، ورغم ذلك فإن العلاقة العلنية بين الأخوين جيدة، بل إن الملك رودولف بطبيعته الخفيفة لا يُقدّر مقدار الخطر الذي يحدق به عن طريق أخيه، وهكذا تتابع الأحداث ليقوم بلاك مايكل بتخدير الملك؛ لمنعه من الوصول إلى احتفالية التنصيب، ويتفق كل من الكولونيل سابت وفيرتس على مفاجأة مايكل بحضور الملك، ولكن ليس الملك حقًا من سيحضر بل رودولف راسيندل ممثلاً لدور الملك، ولكن مايكل يكتشف خطتهم فيختطف الملك الحقيقي، وهكذا يظل رودولف باقيًا على عرش روريتانيا مؤديًا لدور الملك، وفي ذات الوقت يضع الخطط لينقذ الملك الحقيقي من يد مايكل.

خالد عوض

الفصل الأول

– متى ستفعل شيئًا يا رودلف؟

قالت زوجة أخي ذات صباح ونحن نفطر فأجبت:

– ولماذا أفعل شيئا يا عزيزتي روز؟، إن مركزي يحقق أسباب الحياة الناعمة، وعندي ما يكاد يكفي لكل حاجاتي لكن ما من أحد يملك ما يكفيه كما تعلمين، ثم أني أخو اللورد برلسدن وصهر أجمل سيدة وفي هذا الكفاية.

فقالت معقبة:

– لقد بلغت التاسعة والعشرين من عمرك ولم تفعل شيئا.. اللهم إلا..

– التسكع؟ هذا صحيح، فليس أفراد أسرتنا بحاجة إلى عمل شئ.

ساءت ملاحظتي هذه روز إلى حد ما فكل الناس يعلمون، أنه رغم جمالها، فإن أسرتها لم تكن تسمو إلى مرتبة أسرة راسنديل، فإلى جانب جمالها كانت روز تملك ثروة كبيرة، وكان أخي روبرت – لورد برلسدن – من الحكمة بحيث لم يأبه لكون عائلتها عريقة أم لا، مهما يكن فإذا كانت حياتي تافهة في نظر روز فإني قد تمتعت بقدر كبير من المسرات واكتسبت قدرا من المعرفة، فقد تلقيت علومي في مدرسة ألمانية ثم التحقت بجامعة ألمانيا أيضا وفي استطاعتي أن أتكلم اللغة الألمانية بطلاقة كما أتكلم الانجليزية ثم إني ملم باللغة الفرنسية أيضًا، وفي اعتقادي أنني كنت لاعب سيف ماهرا، وراميا

قديرا، وفي استطاعتي أن أعتلي صهوة أي نوع من الجياد وكان رأسي كأبرد ما تكون الرؤوس رغم الشعر الأحمر المتقد الذي يغطيها.

- إن الفرق بينك وبين روبرت هو أنه يعرف واجبات مركزه، وأما أنت فتكتفي بالنظر إلى فرص مركزك.

- إن الفرص للرجل واجبات يا عزيزتي روز.

- حديث خرافة فها هو السير جاكوب بوروديل يعرض عليك ما أنت أهل له تماما، إنه سيصبح سفيرا بعد ستة أشهر ويقول إنه سيأخذك معه كملحق سياسي فأقبل هذا المنصب كي تسرني.

وإذا تضع زوج أخي الأمر على هذا النحو فتعقد حاجبيها الجميلتين، وتلوي يديها الصغيرتين، وكل ذلك من أجل شخص كسول مثلي فإن ضميري يهب من سباته، فضلا عن أنه خطر لي أنه قد يمكنني قضاء الوقت في هذا المنصب في التمتع بشئ من المسرة، لذلك قلت: إذا لم يحدث خلال الستة شهور ما يحول بيني وبين الذهاب فسأذهب معه.

- أوه يا رودلف كم أنا مسرورة.

وهكذا قطعت عهدا على نفسي، ولكن ستة شهور وقت طويل فرحت أبحث عن أمر شائق أفعله في تلك الأثناء وقد عن لي فجأة أن أزور روريتانيا، إذ طالعت في الصحف أن رودلف الخامس سيتوج باحتفال عظيم في سترلزو أثناء الثلاثة الأسابيع المقبلة، ويرجع عدم ذهابي إلى هذه المملكة التي على الرغم من صغرها لعبت دورا ليس بالصغير في التاريخ الأوربي، وقد تعود للقيام بالدور نفسه تحت ثانية حكم ملك شاب قوي، وعلى هذا عقدت

العزم على الذهاب، ولم يكن من عادتي أن أطلع أهلي على الأماكن التي سأزورها إبان رحلاتي، ولما كنت راغبا ألا يعارضني أحد في هذه الرحلة، فقد قلت أنني ذاهب في رحلة على الأقدام في الألب، فلم تبتهج روز لكن عندما وعدت بأن أضع كتابا عن المسائل السياسية والاجتماعية في هذا الإقليم صاحت مسرورة:

– سيكون هذا مدهشا، عدني بأنك ستفعل ذلك.

– إذا توفرت لدي المادة، فسأفعل.

ولكنها لم تستطع أن تنتزع مني نصف وعد، ولا أكون مغاليًا إذا قلت أنه لم يتبادر إلى ذهني لحظة واحدة أن قصة رحلتي ذاك الصيف لم تكن لتلطخ ورقة أو تستهلك قلما مما يدل على أننا نجهل إلى حد بعيد ما يخبئه المستقبل، فها أنذا أبر بوعدي وأكتب –كما لم يخطر ببالي أن أكتب– كتابا، ولو أنه لن يصلح كمقدمة لحياة سياسية ولا علاقة له بالألب، ثم أنه لن يروق في عين ليدي براسدن، إذا اتفق وأعطيته لها لتقرأه، وذلك أمر ليس في نيتي أن أفعله.

* * *

وعندما كنت أمر بباريس جاء أحد الأصدقاء لمقابلتي، وبينما كنا واقفين نتحدث بجانب القطار إذ تركني صديقي فجأة ليتحدث إلى سيدة فتبعته بعيني، ورأيته يرفع قبعته لسيدة حسناء في نحو الثلاثين من عمرها، طويلة القامة، سمراء اللون، وبعد لحظة عاد جورج إلي وقال:

– إنها أنطوانيت دي موبان التي يقولون أن دوق سترلزو – شقيق الملك رودلف كما تعلم – قد خصها باهتمامه.. وهي أرملة ثرية طموح، من يدري ما الذي تسعى إليه؟

لم يبد على هذه الأرملة الحسناء أنها تريد أن تتعرف بي إذ أني لم أرها بعد ذلك ولو أننا كنا في قطار واحد، وما أن بلغت حدود روريتانيا (حيث رماني الموظف الرسمي بنظرة غريبة كأنما رأى شبحا) حتى ابتعت الصحف فوجدت بها من الأنباء ما أثر على خط سيري ذلك أنه لسبب ما قدم تاريخ التتويج فجأة، وتقرر أن يجري الاحتفال بعد غد، وقد علمت أن سترلزو كانت مكتظة بالناس فاستؤجرت الغرف كلها وازدحمت الفنادق، فلم يكن أمامي إلا البقاء في زندا، وهي مدينة صغيرة على بعد خمسين ميلا من العاصمة، وعشرة أميال من الحدود وقد وصلها القطار في المساء، فكان على أن أمضي اليوم التالي – الثلاثاء – في التجول فوق التلال والتفرج على قلعتها المشهورة على أن أذهب إلى سترلزو بالقطار صباح الأربعاء ثم أعود عند المساء لأقضي ليلتي في زندا.

ولهذا نزلت في زندا، وبينما كان القطار يمر من أمامي، رأيت مدام دي موبان في مكانها وكان من الواضح أنها ذاهبة إلى سترلزو حيث احتجزت لنفسها مسكنا هناك إذ أنها كانت أبعد نظرا مني، ولقد استقبلت في الفندق بحفاوة شديدة، ولم يكن الفندق في الحقيقة أكثر من خان صغير تديره سيدة عجوز بدينة وابنتاها، وهن طيبات وادعات، وكانت السيدة العجوز تحب الدوق الذي أصبح الآن، ومنذ وفاة الملك الراحل، سيدا على أراضي زندا وقلعتها التي تنهض بعظمة فوق تل شديد الانحدار في نهاية الوادي على

مبعدة ميل أو نحو ذلك من الخان، وقد أعربت السيدة العجوز عن أسفها لأن الدوق لم يقتعد العرش بدلا من أخيه.

- إننا نعرف الدوق مايكل فقد عاش بيننا على الدوام وكل رويتاني يعرفه، لكن الملك يكاد يكون غريبا فقد كان خارج البلاد حتى أنه لا يكاد يعرفه واحد من عشرة بمجرد النظر.

وقالت إحدى الفتاتين: ويقال أنه حلق لحيته فأصبح لا يعرفه أحد على الإطلاق.

فصاحت أمها: حلق لحيته! من قال هذا؟

- جوهان، حارس غاب الدون، فقد رأى الملك.

- نعم.. إن الملك يا سيدي موجود الآن في بيت صيد الدوق هنا في الغاب، وسيذهب من هنا إلى سترلزو ليتوج صباح الأربعاء.

وقد سرني أن أسمع ذلك وحزمت أمري على أن أسير في اتجاه بيت الصيد في الصباح التالي عسى أن التقي بالملك، واستطردت المرأة العجوز: وددت لو بقي في صيده ويدع دوقنا يتوج يوم الأربعاء.

فقالت صغرى الأختين وكانت أجملهما:

- أما عن نفسي فإنني أكره بلاك ميكل أريد الفبرجيا ذا شعر أحمر يا أماه، يقولون إن شعر الملك أحمر.

وضحكت وهي تنظر إلي فقالت السيدة العجوز: كم من رجل لعن شعره الأحمر.

فصاحت الفتاة: ولكن ما من إمرأة مطلقا!

ظننت أن الوقت قد حان للتدخل كي أحول دون عراكهن فسألت:

– لكن كيف اتفق أن يكون الملك هنا وهذه أرض الدوق كما تقلن؟

– لقد دعاه الدوق يا سيدي ليستريح هنا حتى يوم الأربعاء، وأما الدوق نفسه ففي سترلز يعد العدة لاستقبال الملك.

– إذن فهما صديقان.

فألقت أصغر الفتاتين برأسها إلى الخلف وقالت: نعم.. إنهما يحبان بعضهما كما يتحاب الرجال الذين يصبون إلى منصب واحد وزوجة واحدة.

فبدا الغضب على المرأة العجوز، وقالت: المنصب نفسه؟، أظنك تعنين العرش لكن زوجة واحدة كيف ذلك؟،

– إن العالم بأسره يعرف أن بلاك ميكل – حسنا يا أماه – إن الدوق يبذل روحه ليتزوج من ابنة عمه، الأميرة فلافيا التي ستصير ملكة.

فقلت: قد بدأت أشعر بالأسف من أجل دوقكم لكن على الابن الأصغر أن يأخذ ما يتركه الابن الأكبر ويشكر الله على قدر ما يستطيع.

وضحكت وأنا أفكر في مدام دي موبان ورحلتها إلى سترلزو، وإذ ذاك ارتفع صوت قدم ثقيلة عند الباب ثم دخل رجل فقالت مضيفتي: إن عندنا نزلاء يا جوهان، وخلع الرجل قبعته ولشد ما كانت دهشتي حين رأيته يرتد خطوة إلى الوراء لحظة وقع بصره علي كأنما رأى شيئا عجيبا كما فعل موظف الجمرك من قبل، فسألت كبرى الفتاتين ما الأمر؟ وكان الرجل قد استعاد

هدوءه ولكنه ظل يرمقني بنظرة غريبة أقرب إلى الشراسة، فقلت له: طاب مساؤك.

فأجاب بصوت خافت: طاب مساؤك يا سيدي.

فأخذت صغرى الفتاتين في الضحك ثم قالت: انظر يا جوهان إنه اللون الذي تحبه، لقد أدهشه مرأى شعرك يا سيدي إنه ليس اللون الذي نراه كثيرا هنا في زندا.

فقال جوهان: أرجو المعذرة يا سيدي.

عندئذ حييتهم جميعا تحية المساء ونهضت واقفًا فأسرعت الفتاة الصغيرة لتنير لي الطريق إلى غرفتي، وأما جوهان فظل يحدق في بغرابة وأنا أمر من أمامه..

وفيما كانت الفتاة ترتقي الدرج أمامي قالت: لا يسر السيد جوهان برؤية أحد له لون شعرك يا سيدي.

– ربما يفضل شعرك أنت.

– أقصد في الرجال يا سيدي.

– وما أهمية لون الشعر عند الرجال؟

– لا أعلم يا سيدي، غير أنني أحب لون شعرك، اللون الأحمر الذي اشتهر عن آل ألفبرج.

– إن لون الشعر عند الرجال مسألة لا أهمية لها أكثر من هذا تمامًا.

ثم تركتها وفي الواقع أن لون الشعر كما أعرف الآن قد يكون على جانب عظيم من الأهمية للرجل في بعض الأحيان.

الفصل الثاني

وفي اليوم التالي اكتشفت أنه بالسير عشر أميال عبر الغابة يمكنني أن أصل إلى سكة الحديد ثانية عند محطة جانبية، فبعد أن ودعت مضيفاتي انطلقت أصعد التل المؤدي إلى القلعة، ومن هناك إلى غاب زندا، وقد كان القصر قلعة في غابر الأيام ومازال القسم الأثري في حالة جيدة وكان حوله خندق عميق واسع، وفي الناحية الأخرى كان هناك بناء عصري جميل انشأه الملك السابق واتخذ منه دوق سترلزو قصرا ريفيا.

وعندما اقتربت من القلعة رأيت أنه اتصل بين القسمين القديم والحديث قنطرة متحركة هي في الحقيقة الطريق الوحيد الموصل إلى القلعة القديمة، في حين كان يؤدي إلى البناء الجديد طريق واسع، ففكرت في هذه الوسيلة المريحة التي يلجأ إليها الدوق ميكل إذا شاء ألا يقابل أحدا، فما عليه إلا أن يعبر القنطرة ثم يأمر برفعها خلفه (وكانت تتحرك على اسطوانات)، وعندئذ لم يكن ليخرجه من القصر أقل من فرقة من الجند بمدافعهم الثقيلة.

سرت في طريقي وسرعان ما دخلت الغاب وأوغلت في ظله الرطب ساعة أو أكثر، وكان المكان جميلا فالأشجار الكبيرة تتعانق أغصانها فوق رأسي فتتسلل أشعة الشمس من بينها هنا وهناك، وبعد برهة جلست فوق جذع شجرة ملقى على الأرض لأدخن غليوني وأستريح في سلام فلما فرغت من ذلك استسلمت لسبات هنئ غير عابئ بالحقيقة التي لا تقبل جدلا وتلك أنني في أملاك الدوق ميكل، ثم أفقت من نومي على صوت خشن عال يقول:

- إن للشيطان دخلا في الأمر؟ أحلق له لحيته ليصير الملك؟

فتحت عيني فوجدت رجلين ينظران إلي بفضول شديد وكان كلاهما يرتدي لباس الصيد ويحمل بنادق، أحدهما قصير إلى حد ما، له قوام متين البنيان ورأس كبير مربع وشارب أشيب وعينان صغيرتان باهتتا الزرقة، وأما الآخر فنحيف القامة متوسط الطول أسود الشعر تبدو عليه مظاهر النعمة، فأدركت أن الأول جندي وأن الآخر سيد اعتاد غشيان الأوساط العالية، ولكنه ملم بحياة الجندية أيضا وقد اتضح فيما بعد أن استنتاجي كان صائبا.

تقدم أكبرهما سنا مني وتبعه الآخر الذي رفع قبعته باحترام فنهضت واقفا بتثاقل بينا غمغم الرجل العجوز وهو يقيس قوامي ذا السنة أقدام وبوصتين: "إنه في نفس الطول أيضًا".

ولمس قبعته بإهمال ثم خاطبني قائلًا:

- هل لي أن أسأل عن اسمك؟

فقلت باسما: أما وقد خطوتما الخطوة الأولى أيها السيدان فأظن أنه يجدر بكما أن تخبراني أولا باسميكما.

فابتسم الشاب وقال: هذا هو الكولونيل سابت وأنا فريتزفون تارلنهايم، وكلانا في خدمة ملك روريتانيا.

فانحنيت ثم خلعت قبعتي وقلت: وأنا رودلف راسنديل، مسافر من انجلترا، وقد كنت مرة ضابطا في جيش حضرة صاحبة الملكة فيكتوريا لعامين.

فأجاب تارلنهايم هو يبسط إلى يده التي لم أتردد في مصافحتها:

– إذن فكلنا أخوان الحسام.

وقال سابت بلهجة عميقة: حسنا يا مستر راسنديل، ربما كنت لا تعرف هذه الحقيقة، وتلك أنك تشبه ملكنا تماما.

فشعرت بالضيق وتذكرت نظرات رجل الجمرك وجوهان في اليوم السابق فلو أني عرفت الحقيقة لفكرت طويلا قبل زيارة روريتانيا مهما يكن، وفي هذه اللحظة رددت الغاب خلفنا صدى صوت رنان:

– فريتز.. فريتز؟ أين أنت أيها الرجل؟

فدار تارلنهايم على عقبية وأسرع يقول:

– إنه الملك؟!

فضحك سابت العجوز، بينما وثب شاب من وراء جذع إحدى الأشجار ووقف إلى جانبنا، فما أن وقع بصري عليه حتى أفلتت شفتاي ضرخة دهشة وأما هو فإذ رآني ارتد إلى الخلف وقد تملكته دهشة مفاجئة، فلو أننا استثنينا الشعر الذي على وجهي وشعورا بوقار شخصي خلعه عليه منصبه لكان ملك روريتانيا هو رودلف راسنديل ولكنت أنا "رودلف راسنديل" هو الملك، وكان الملك أول من استطاع الكلام، سأل: كولونيل فريتز من هذا السيد؟

فقال سابت بجفاء:

– يخيل أن لكم شبيها يا مولاي.

وإذ زالت الدهشة عن الملك نظر إلى ثانية ثم انفجر يضحك بمرح وصاح وهو يتقدم مني ويأخذ يدي:

- أهلا بك يا أخي يجب أن تصفح عن دهشتي، أخبرني من أنت؟ وإلى أين أنت ذاهب؟.

بدا عليه الشك عندما قلت أنني كنت ذاهبا إلى سترلزو في اليوم التالي فضحك ثانية وهتف:

- فريتز.. فريتز.. إني أدفع ألف جنيه لأرى وجه الأخ ميكل حين يقع بصره علينا نحن الإثنين!

فقال فريتز: مولاي.. أقول جادا إنني لا أظن أنه من الحكمة أن يزور مستر راسنديل سترلزو في الوقت الحاضر.

فأشعل الملك لفافة تبغ وقال: حسنا يا سابت؟

فزمجر الرجل العجوز: يجب ألا يذهب.

قال الملك: إنك تعني يا كولونيل إنني سأكون مدينًا لمستر راسنديل إذا.

قال سابت: أوه.. خذ الأمر من وجهه الصحيح.

فقلت: كفى يا مولاي، سأغادر روريتانيا الليلة.

فأجاب الملك: لا.. بالتأكيد لن تفعل وهذا هو القول المباشر كما يجب، سابت ستتعشى معي الليلة مهما يحدث بعدئذ.. تعالى أيها الرجل فإنك لا تقابل أخًا جديدًا كل ليلة.

فوافق سابت وفرينز.. ومن ثم سرنا في الغاب وكان الملك يدخن لفافة تبغ بعد أخرى، ويتكلم باستمرار، فوجدت فيه رفيقا مرحا ظريفا، ولما خرجنا من الغاب بعد نحو نصف ساعة ألفينا أنفسنا أمام بيت صيد صغير خشن، وكان بناء ذا طابق واحد مشيدا من الخشب، وقد خرج لمقابلتنا خادم كما رأيت امرأة عجوزا بدينة، علمت فيما بعد أنها أم جوهان حارس الغاب، وما هي إلا لحظة حتى جلسنا إلى وجبة حافلة وصاح الملك يطلب خمرًا فقال فريتز:

- تذكر الغد.. يجب أن نرحل مبكرين.

- فضحك سابت العجوز وقال: نعم.. الغد!

شرب الملك نخب صحتي وهو يدعوني (أخاه الجديد) فأجبت (بالحياة الطويلة لآل الفبرج) ، وكان الطعام شهيًّا وكانت الخمر معتقة فأوفيناها حقها وفشلت محاولات فريتز لوقف الملك عند حد، وفي الواقع سرعان ما أمكن إقناع فريتز بأن يستمر في الشرب، وأخذ الملك يتحدث عما سيفعله في المستقبل وسابت العجوز عما فعله في الماضي وفريتز عن غادة حسناء أو غيرها، وأنا عن عظمة روريتانيا وكنا جميعا نتكلم في وقت واحد وقد نسينا الغد.

وأخيرا مال الملك إلى الخلف في مقعده وقال إنه شرب ما فيه الكفاية، وعندئذ وضع جوزيف أمامنا زجاجة قديمة مدهشة وقال:

- طلب إلي حضرة صاحب السمو دوق سترلزو أن أضع هذه الخمر أمام الملك عندما يضجر من الخمور الأخرى.

فصاح الملك:

– حسنا فعلت أيها الأخ ميكل؟ انزع الغطاء يا جوزيف، إنها الأخيرة.

ورفع الملك كأسه وتذوق الخمر ثم انثنى إلينا وقال:

– أيها السادة.. يا أصدقائي.. رودلف يا أخي لكم كل شئ حتى نصف روريتانيا.. ولكن لا تسألوني قطرة واحدة من هذه الزجاجة المدهشة.. إنني أشرب نخب صحة ذلك الشرير بلاك ميكل.

وقبض الملك على الزجاجة وقلبها فوق فمه وأفرغها في جوفه حتى آخر قطرة ثم قذف بالزجاجة إلى الجدار فكان صوت تحطيم الزجاج آخر شئ سمعته إلى عدد كبير من الساعات.. فقد نمنا جميعا حيث كنا، وأفقت فجأة وأنا مبلل فرأيت سابت العجوز وبيده دلو وقد جلس على المائدة إلى جانبه فريتز فون نار لنهايم وهو شاحب الوجه كالشبح، فانبعثت واقفا وأنا غاضب وصحت وأنا أجفف الماء عن عيني وشعري:

– إنكم تتمادون في التفكه.

فأجابت سابت: لا وقت للعراك، فلا شئ آخر يوقظك غير ذلك، إن الساعة الآن الخامسة.

فقلت بحرارة:– وما شأني بذلك؟

فقاطعني فريتز وهو ينزل من على المائدة ويمسك بذراعي:– انظر هنا يا راسنديل.

كان الملك ممددا فوق الأرض وكان وجهه أحمر كشعره وكان يتنفس

بصعوبة فركله ساب بغير احترام وبشدة، ولكنه لم يبد حراكا وقد رأيت أن وجهه ورأسه كانا مبتلين بالماء مثلي، وقال فريتز:

- لقد قضينا نصف ساعة ونحن نحاول إيقاظه، فركعت بجانبه واختبرت نبضه، وكان بطيئًا بشكل مروع.

فقلت: لا ريب أن تلك الزجاجة الأخيرة كانت مخدرة، يجب أن ندعو طبيبا.

فزمجر سابت:

- لا يوجد طبيب على مرحلة عشرة أميال ثم إن ألف طبيب أن يتمكنوا من الذهاب به إلى سترلزو اليوم.

فصحت:

- والتتويج؟

فقال فريتز:

- يجب أن نرسل من يخطر القوم بأنه مريض.

- فضحك سابت العجوز بسخرية وقال: إذا لم يتوج اليوم فلن يتوج أبدًا.

فسألت: ولكن لماذا؟

- إن الشعب بأسره هناك يستعد للقائه، وكذلك نصف الجيش على رأسه بلاك ميكل، فهل نرسل إليهم نخطرهم بأن الملك ثمل جدا ولا يستطيع الحضور؟

فقلت مصححًا: لأنه مريض.

– فردد سابت وهو يضحك ساخرا:

– مريض! إن الشعب يعرفه جيدا فطالما وقع مريضًا من قبل.

فقال فريتز: يجب أن نتلافى ما قد يدور بخلدهم.

قال لي سابت:

– أخبرني هل تعتقد أن الملك خدر.

– بالتأكيد.

– إذن من خدره؟ إنه بلاك ميكل بالطبع، وما السبب؟ لكي يمنعه من أن يتوّج.

وتحول إلى فريتز ثم استطرد: أنت تعلم أن نصف سكان سترلزو يفضلون أن يكون الدوق ميكل ملكًا، وأنا أؤكد أنه إذا لم يتوج رودلف الخامس اليوم فسيأخذ ميكل الأول مكانه.

سادنا الصمت لحظة أو اثنتين ثم تحول سابت إلى وقال: كلما طعن الإنسان في السن زاد اعتقاده في القدر، إن القدر هو الذي أرسلك إلى هنا وهو الذي سيرسلك الآن إلى سترلزو.

فوثبت إلى أعلى وأنا أصيح:

– يا إلهي!

فنظر فريتز إلينا وقد ارتسمت على وجهه أمارات اللهفة المفاجئة، فأجبت:

– محال، لابد أن ينكشف أمري.

فقال سابت:

– إنها مجازفة ولكنها من ناحية أخرى حقيقة.. لن تعرف إذا حلقت لحيتك.. أخائف أنت.

– سيدي.

– هلم يا فتى.. واصفح عني.. لكن لا يخفى عليك أن حياتك في كفة الميزان وكذلك حياتي وحياة فريتز لو انكشف أمرك فإذا لم تذهب فإني أقسم لك أن بلاك ميكل سيجلس الليلة على العرش ويرقد الملك إما في السجن أو في قبره.

– لكن الملك لن يصفح عني.

– أنحن نساء؟ من ذا يأبه لصفحه؟

ومرت الثواني – خمسون – ستون – سبعون.. ويظهر أنه بدت على وجهي إشارة ما إذا أمسك سابت العجوز بذراعي وصاح:

– هل ستذهب؟

فقلت وأنا أنظر إلى هيكل الملك الممدد فوق الأرض:

– نعم سأذهب.

الفصل الثالث



الساعتان التاليتان مرتا كالحلم، ومن حسن الحظ أن كان سابت هناك ليفكر من أجلي ومن أجل فريتز أيضا، إذ كان يفكر في كل شيء، استدعى سابت جوزيف وأمره أن يحلق لي لحيتي بينما نقل الملك إلى بدروم الخمر بأسفل، وأما عن المرأة البدينة، أم جوهان فقد ارتاب سابت في أنها تسترق السمع عند الباب على حركاتنا وسكناتنا ولذا شد وثاقها ووضع منديلا في فمها ثم سجنها في غرفة أخرى من غرف البدروم، وصاح فريتز:

- الحرس! ماذا سيحدث؟ سيكشفون الأمر!

فشرح سابت:

- سيبعث ميكل حرسًا ليذهبوا مع الملك ولكننا سنذهب بدونهم ونركب القطار من هوفياو بدلًا من زندا فعدما يصلون يكون الطير قد أفلت.

فقلت:

- إذا كانوا يعرفون شيئا من خطط ميكل فسيظنون أننا ارتبنا في الأمر.

ارتديت بزة الملك البيضاء كما ارتدى سابت وفريتز بزتيهما أيضا، ثم تركنا جوزيف، وقد زودناه بأوامر صارمة ليحرس البدروم حتى نعود، ومن ثم وثبنا فوق صهوات جيادنا - جياد الملك - وركبنا عبر الغاب وفي الطريق شرح لي سابت - على قدر طاقته - ما يتعلق بحياة الملك الماضية، عائلته، ما يحب وما لا يحب، أصدقاؤه، رفاقه وخدمه، وأخبرني بتقاليد البلاط

الروريتاني ووعدني أن يكون إلى جانبي في كل لحظة من لحظات النهار، وأما فريتز فتكلم قليلا وكان يركب كرجل يحلم.

وبلغنا المحطة في تلك الأثناء، وكان فريتز قد استعاد شيئا من رباطة جأشه مكنه من أن يشرح لناظر المحطة أن الملك قد غير خططه وجاء القطار وبخاره يتدفق، وما أن جلسنا بسلام في عربة من عربات الدرجة الأولى حتى استأنف سابت دروسه فنظرت إلى ساعتي – ساعة الملك بالطبع – فإذا بها بعد الثامنة بقليل، قلت وأنا أفكر بقلق فيما قد يحدث في بيت الصيد:

- كم أعجب هل ذهبوا ليبحثوا عنا؟
- لا فائدة من التفكير الآن، يجب عليك ألا تفكر اليوم في شئ إلا في تلك الحقيقة، وهي أنك الملك.

وفي منتصف الساعة العاشرة نظرت من النافذة فرأيت أبراج وقباب ومنازل مدينة عظيمة.

ضحك سابت وقال وهو يلوح بيده "عاصمتك يا مولاي"، ثم مال إلى الأمام وتحسس نبضي وغمغم: "إنه سريع بعض شئ، لكنك ستقوم بالمهمة على كل حال، وأما أنت يا فريتز فيجب أن تقول إنك أصبت ببرد لأنك ترتجف كورقة شجر، والآن هيا بنا لقد تأخرنا ساعة عن الموعد الذي يتوقعون وصولنا فيه سنبعث ونخطر القوم بوصولك وفي أثناء ذلك.. " فقاطعته قائلا: "في أثناء ذلك يريد الملك أن يفطر".

فضحك سابت العجوز وقال: وإنك تتحدث كالفابرجي صميم.

ووقف القطار فقفز منه فريتز وسابت، وخلعا خوذتيهما، وأمسكا بالباب لي فحاولت أن أبتلع غصة ارتفعت في حلقي، ووضعت خوذتي في أحكام على رأسي، ثم نزلت من القطار، وبعد لحظة كان كل شئ في هرج ومرج، فمن رجال يهرولون مبتعدين ثم يعودون ثانية، إلى رجال يقودونني إلى المقصف، إلى آخرين يمتطون جيادهم وينطلقون بسرعة عظيمة في مختلف الجهات وفيما كنت أجرع آخر قطرة من قدح قهوتي أخذت نواقيس المدينة تدق بينا بلغت مسامعي أصوات فرقة موسيقية وصيحات عالية فلقد كان الملك رودلف الخامس في مدينة سترلزو! وسمعت الشعب يصيح: ليحفظ الله الملك؟

فابتسم سابت وهمس: ليحفظهما الله معا، تشجع يا صديقي.

وفيما كنت أغادر المقصف وفي أثري فريتز وسابت وقفت في انتظاري جماعة من الضباط والشخصيات ذوي المقامات العالية على رأسهم رجل عجوز طويل القامة يرتدي بزة رسمية، همس سابت بأنه الماريشال شتاكنتس فأدركت أنني في حضرة رئيس الجيش وكان يقف خلفه رجل قصير القامة في ثياب فضفاضة طويلة فهمس سابت ثانية: هو ذا وزير المالية وإذن فهذا هو كبير وزرائي.

حياني الماريشال بكلمات قلائل تدل على الولاء، ثم اعتذر من غياب دوق سترولزو فقد أصيب بوعكة مفاجئة عاقته عن الحضور إلى المحطة ولكنه يلتمس أن يسمح له بانتظاري في الكاتدرائية فأعربت عن أسفي من أجله وعندئذ تقدم مني عدد كبير من الناس ولما لم يبد على أحدهم أنه ارتاب في

أمري بدأت أشعر بشئ من الثقة والاطمئنان أما فريتز فكان شاحب الوجه وقد ارتجفت راحته عندما بسطها للماريشال، وشكلنا موكبا وسرنا نحو مدخل المحطة وهناك امتطيت صهوة جوادي وبدأت المسير وكان الماريشال راكبا عن يميني وسابت عن يساري بينما انطلق الموظفون الآخرون إلى مركباتهم وساروا في أثرنا.

تتكون مدينة سترلزو من جزءين أحدهما قديم، والآخر حديث فالطرق العصرية الفسيحة والمنازل الفخمة تحيط بشوارع المدينة القديمة المتعرجة ففي الأحياء الخارجية يقيم أفراد الطبقة الراقية في حين تقع الحوانيت في الداخل، وتتوازى خلف واجهاتها الفنية منعطفات ودروب مكتظة يخيم عليها الشقاء وتملؤها طبقة مدقعة الفقر غير مخلصة، ميالة إلى الإجرام ولقد كان هذا التقسيم - كما علمت من سابت - يتصل اجتماعيا ومحليا بتقسيم آخر بالنسبة إلي إذ كانت المدينة الحديثة تؤازر الملك وأما المدينة القديمة فكانت تفضل ميكل أوف سترلزو ولم تكن تخشى إظهار هذا التفضيل.

كان المنظر رائعا جدا عندما كنا نجتاز الطريق الرئيسي إلى الساحة حيث يوجد القصر الملكي فقد كنت بين شعبي، وكانت جميع الأعلام تتدلى من جميع المنازل بينما راحت الجماهير تهتف لي وتحييني بتلويح أيديها على طول الطريق حتى بدأت أشعر بأنني ملك حقيقة وفجأة رفعت عيني مصادفة إلى إحدى النوافذ وهناك رأيت انطوانيت دي موبان التي سافرت معي من باريس رأيتها تميل إلى الأمام وتحملق في، فألفيت نفسي أتحسس مسدسي إذ افترضت أنها ربما صاحت: (هذا ليس الملك).

استمررنا في سيرنا وبعد بضع دقائق أعطي الماريشال أمرا فضرب حرس الفرسان حولي نطاقا إذ كنا ندخل الحي الفقير الموالي للدوق ميكل، ولقد دلني هذا العمل بوضوح أكثر من كلمات سابت على حالة شعور أهل المدينة.

فسألت: لماذا هذا التغيير في أوامرك يا ماريشال؟

فعض الماريشال على شاربه الأبيض وغمغم: هذا أكثر أمنًا يا مولاي.

فأوقفت جوادي وقلت: دع الذين يسيرون أمامي يتقدمونني بخمسين ياردة، أما أنتم أيها المريشال والكولونيل سابت وأصدقائي فتنتظرونني هنا حتى أقطع خمسين ياردة فإنني أريد أن يرى الشعب أن مليكهم يثق به، فوضع سابت يده على ذراعي ولكنني دفعته عني بينا تردد الماريشال.

فقلت: أليس كلامي مفهومًا؟

فعض الماريشال على شاربه ثانية ثم أصدر الأوامر، في حين رأيت سابت العجوز يخفى ابتسامة في لحيته ويهز رأسه لي، فلو أني قتلت في وضح النهار في شوارع سترلزو لصار مركز سابت حرجا.

شعرت بلذة الركوب وحيدا، فقد أمكنني أن أسمع حديث الجماهير، ففي أول الأمر كانت هناك غمغمة، ثم هتاف ويدفعني تواضعي إلى أن أقرر أنني كنت أنيقا في بزتي البيضاء، وقد سمعت قوما عديدين ينطقون بعبارات فكهة عني لكن أغلبيتهم لزم الصمت، وكانت صورة أخي العزيزتين أكثر النوافذ، وأخيرا وصلنا إلى الكاتدرائية، وعندئذ استولى علي شعور قوي بفداحة موقفي واستنار أمامي السبيل، فترجلت وكأني في حلم إذ كان يخيل

إلى أن المسألة كلها لا ظل لها من الحقيقة. وسرت إلى البناء الأثري وقد غشيت عيني سحابة ولم أر شيئا من الجموع المتأنقة الثياب التي كانت تنتظرني، وقد رأيت وجهين بوضوح، أحدهما وجه فتاة وكان جميلا ممتقعا يعلوه شعر الفبرج المجيد "لأنه مجيد في النساء"، والآخر وجه رجل له غائرتان سوداوان، وشعر أسود، فعرفت أنه بلاك ميكل، وأما هو فقد نظر إلي كما لو كنت شبحا.

لست أذكر شيئا على وجه التقريب من الحفلة، اللهم إلا حين أخذت التاج من الكردينال ووضعته على رأسي، وعندئذ صاح رجل – حضرة صاحبة السمو الأميرة فلافيا !، فانحنت لي بشدة وقبلت يدي، وقبل أن أعرف ماذا أفعل، وقف الكردينال أمامي، وجاء بعده بلاك ميكل فرأيت سابت يخفي ابتسامة ثانية في لحيته وكان أخي المحب يرتعش كورقة شجر، ومع ذلك فإني لم أر على وجه الأميرة أو وجه أي إنسان أقل أثر ينم عن ريبتهم في أنني الملك، عدنا ثانية نسير خلال الطرقات إلى القصر وكنت وقتذاك راكبا مركبة وجالسا إلى جنب الأميرة فلافيا، وعندئذ صاح رجل من الدهماء: ومتى يكون الزفاف؟.

وما أن نطق الرجل بهذه العبارة حتى لطمه آخر على وجهه وصاح: يحيا الدوق ميكل، فتخضب وجه الأميرة ونظرت إلى الأمام مباشرة وعندئذ اعترضتني صعوبة، ذلك أني كنت قد نسيت أن أسأل سابت عن حالة عواطفي وعن مدى العلاقات بين الأميرة وبيني وبعبارة أصح بينها وبين الملك، ولذا لزمت الصمت، ولكن ما هي إلا لحظة أو اثنتان حتى تحولت إلى الأميرة وقالت: هل تعلم يا رودلف أنك تبدو اليوم متغيرا بعض الشئ؟،

لم تكن تلك الحقيقة باعثة على الدهشة، بيد أني شعرت بالقلق واستطردت: أنك تبدو أكثر رزانة وفي اعتقادي أنك أشد نحافة، فهل يحتمل أن تكون قد بدأت تنظر إلى الحياة نظرة جدية؟

كان علي أن أجيب بشئ.. فهمست برقة:

- أيسرك ذلك؟

فأجابت وهي تشح عني بوجهها:

- أوه: أنت تعرف آرائي.

قلت: إني أحاول أن أفعل كل ما يرضيك.

- وإذ رأيتها تبسم ويحمر جها ثانية خطر لي أني كنت أمثل للملك دورًا ناجحًا، فقلت: حقًّا يا ابنة العم.. ما من شئ أثر في نفسي طيلة حياتي أكثر مما أثرت حوادث اليوم.

فابتسمت ثانية وبدت عليها دلائل الرزانة وهمست: ألاحظت ميكل؟

- نعم، لم يكن راضيا عن نفسه، أليس كذلك؟

فمضت تقول: كن على حذر! يجب أن تضع عليه رقابة أفضل.

فقلت: أعلم هذا.. ذلك لأنه يطمع فيما نلت.

ثم أردفت، دون أي حق في أن أقول مثل ذلك بالنيابة عن الملك: وهو كذلك يطمع في شئ لم أحصل عليه بعد، ولكني آمل أن أفوز به في يوم ما لو أني كنت الملك لخطر ببالي أن إجابتها مشجعة.

همست: أليس لديك من المسئوليات ما يكفيك اليوم يا بن العم.

وصلنا إلى أبواب القصر في تلك اللحظة فأطلقت المدافع تحية لنا ومن ثم عاونت الأميرة على الهبوط من المركبة، وصعدنا جميعا الدرج العريض، وكانت صفوف الخدم في انتظارنا عندما نفذنا إلى غرفة المائدة العظيمة، وجلست والأميرة عن يميني وأخي عن يساري وكذلك جلس أصحاب الشخصيات البارزة، وأما سايت فوقف خلف مقعدي بينا رأيت فريتز وهو جالس في الناحية الأخرى من المائدة يجرع كأس خمر حتى الثمالة، فتساءلت نفسي عما كان ملك روريتانيا يفعله في تلك اللحظة.

الفصل الرابع

كنا في غرفة زينة الملك – فريتز تارلنهايم والكولونيل سابت وأنا – فألقيت بنفسي في مقعد ذي مسندين بينا أشعل سابت غليونه، وعلى الرغم من أنه لم يقدم إلى تهنئة على نجاحي إلا أن مظهره كان يدل على مبلغ رضائه وأما فريتز فكان رجلا جديدا.

هتف: يا له من يوم لك لتذكره!، لا يضيرني أن أكون ملكا لأثنتي عشرة ساعة، لكن ألم يبد على بلاك ميكل أنه كان أكثر اكتئابا عندما كان لديك أنت والأميرة الشئ الكثير تقولانه لبعضكما؟.

فصحت: كم هي جميلة!

فزأر سابت: دعنا من المرأة.. أمتاهب أنت للرحيل.

فأجبت وأنا أتنهد تنهدة عميقة: نعم.

كانت الساعة الخامسة، وعندما تصبح الثانية عشرة لن أكون أكثر من رودلف راسنديل فعلقت على ذلك ممازحا.

فقال سابت: سيكون من حسن حظك إذا لم تكن المرحوم رودلف راسنديل، إني أشعر برأسي يهتز فوق كتفي في كل لحظة تقضيها في المدينة، لقد وصلت لميكل أنباء من زندا، فدخل إلى غرفة أخرى ليقرأها ثم خرج وعلى وجهه أمارات الجنون.

فقلت وقد جعلتني هذه الأنباء أشد لهفة على الرحيل: إني متأهب.

فقال سابت: والآن يا فريتز يأوي الملك إلى مخدعه لأنه متعب ولا تسمح لأحد أن يراه حتى الساعة التاسعة من صباح الغد، فهل فهمت، لا أحد؟.

فقال فريتز: لقد فهمت أيها الكولونيل.

فأردف سابت: حتى ولابلاك ميكل.. إذا فتح باب هذه الغرفة ونحن بعيدان فلن تعيش حتى تبلغنا ذلك.

فقال فريتز في شئ من الكدر: لست بحاجة لأن تلقني ما هو واجبي.

وتدثرنا – سابت وأنا – بمعطفينا وكنت أرتدي ثيابا تشير إلى أنني خادمه، وبعدئذ نفذنا من باب سري ثم سرنا في ممر معتم انتهى بنا إلى طريق هادئ يسير بمحاذاة الجزء الخلفي من حديقة القصر، وكان في انتظارنا رجل معه جوادان جميلان فامتطيناهما وانطلقنا دون أن ننطق بكلمة واحدة.

مرت بنا لحظات خطرة عندما كنا نعبر بوابة المدينة القديمة لكي ما إن خرجنا من المدينة حتى سرنا في أمان تام، وكان الليل جميلا فأطلقنا العنان للجوادين، وكنا نتكلم نادرا، وإذ قطعنا خمسة وعشرين ميلا أوقف سانت جواده فجأة وقال: انصت.

ومن بعيد خلفنا سمعنا وقع حوافر جياد، وكانت الريح تهب بشدة نحونا فحملت إلينا الصوت بسهولة.

قال سابت: هلم.

وجعلنا جيادنا تنطلق بأقصى سرعتها، وحين توقفنا مرة ثانية لنصغي

وضع سابت أذنه فوق الأرض ثم قال: إنهما رجلان، أترى أين يتفرع الطريق هنا؟ ستذهب إلى ناحية اليمين فإن الطريق الآخر يؤدي إلى القلعة وكلاهما حوالي الثمانية أميال، ترجل.

فقلت معترضًا: لكنهما سيدركاننا.

فعاد يقول: ترجل!.

فأطعت، وكنا قد دخلنا غاب زندا منذ قليل، وكانت الأشجار متكاثفة جدا في تلك البقعة فقدنا جوادينا خارج الطريق وانتظرنا مختبئين.

– هل تريد أن تعرف من هما؟

– نعم، وإلى أين هما ذاهبان؟

وما هي إلا لحظات قلائل حتى ظهر الراكبان، وكان القمر ساطعا فاستطعنا أن نراهما بوضوح:

قلت: إنه الدوق.

وكان هو الدوق حقا، وكان معه شخص قوي ضخم الجسم عندي أسباب جعلتني أعرفه جيدا فيما بعد فلم يكن غير مكس هولف أي جوهان حارس الغاب، وقد توقف الاثنان عند تشعب الطرق.

سأل ميكل: أي الطريقين؟ الموصل إلي يا صاحب السمو.

– لماذا لا يذهب لبيت الصيد؟

– أخشى فخًّا إذا كان كل شئ على ما يرام، فلماذا نذهب إلى بيت الصيد وإن لم يكن فلا ريب أنه فخ لا يقاعنا؟

فقال الدوق: حسنا، لنذهب إلى القلعة إذن؟

وما هي إلا لحظة حتى أطلقا جواديهما وصارا في الطريق الذاهب إلى اليسار وانتظرنا بضع دقائق.

وقال سابت: ها أنت ترى أنهم بعثوا إليه برسالة تفيد بأن كل شئ على ما يرام.

– وما معنى ذلك؟

فأجاب سابت محيرا: الله أعلم، لكن الرسالة جعلته يأتي من سترلزو بأقصى سرعة.

ثم امتطينا جوادينا وقطعنا الثمانية أميال الأخيرة ورؤوسنا مشحونة بالخوف والعجب:

" كل شئ على ما يرام " ترى ما معنى هذا؟

وأخيرا ظهر لنا بيت الصيد، فقصدنا إلى الباب، وكان كل شئ هادئا ساكنا ولم يخرج أحد لمقابلتنا، وعندئذ أمسك سابت بذراعي وقال: أنظر هناك.

فنظرت.. وعندئذ رأيت بضعة مناديل ممزقة ومقطوعة.

قال سابت: إنها المناديل التي استعملتها في شد وثاق المرأة العجوز.

وربطنا جوادينا وأسرعنا إلى الداخل، وحتى سابت فقد هدوءه المعتاد.

وهبطنا الدرج عدوا إلى البدروم. كان الباب مفتوحا على مصراعيه!

قلت: لقد عثروا على المرأة العجوز.

فأجاب سابت: كان يجب أن تعرف ذلك من المناديل.. لكن ماذا حل بجوزيف؟ وماذا حدث للملك؟.

لم يكن في استطاعة سابت أن يدخل الغرفة، بالطبع هو لم يكن خائفا على نفسه – فما من أحد شهد عليه بذلك – ولكنه كان يخشى ما قد يعثر عليه في البدروم المعتم، فأحضرت نورا ودخلت أولًا، وهناك في أحد الأركان رأيت جثة رجل ممدد على ظهره وفي عنقه جرح أحمر مستعرض والدم الذي انبثق من الجرح يملأ المكان من حوله بعد أن جف.

سرت داخل الغرفة وركعت بجانب الجثة. كانت جثة جوزيف المخلص. وكان سابت يقف بجانبي فلم يلبث أن صاح بصوت عجيب؟

– يا إلهي أين الملك؟

فسلطت ضوء المصباح في كل بوصة من البدروم.

وقلت: ليس الملك هنا.

ومضت عشر دقائق قبل أن يتمالك سابت رباطة جأشه.. وقد دقت ساعة غرفة المائدة – حيث ذهب الواحدة،

قال سابت في صوت أجوف: لقد استولوا على الملك.

فأجبت: نعم، وهذا يوضح وسالة ميكل: "كل شئ على ما يرام " فيا لها من لحظة بهجة تلك التي تلقي فيها الرسالة، لا عجب أنه كان يبدو كالمجنون وكم أرغب في أن أعرف ما الذي كان يدور بخلده الآن يا فتى؟، فنهضت واقفًا، وصحت، يجب أن نعود لنجمع كل جندي في سترلزو إذ ينبغي القبض على ميكل.

فأشعل سابت العجوز غليونه.. ولكنه لم يتحرك.. فقلت أستحثه: قد يقتل الملك ونحن جالسون هنا.

فقال سابت: إنها تلك العجوز الملعونة، لابد أنها اجتذبت إليها انتباههم بطريقة ما، إني أرى الآن كل ما وقع، لقد جاءوا ليأخذوا الملك أسيرًا على فرض أنه مخدر، فلو أنك لم تذهب إلى سترلزو لقتلنا أنت وأنا وفريتز.

- والملك، من يدري أين هو الآن.

فصحت: هلم.. دعنا نذهب.

وشد ما كانت دهشتي عندما رأيت ابتسامة ترتسم فوق وجه الرجل العجوز.

وقال: نعم سنذهب.. سيكون الملك في عاصمته غدا.

- الملك؟

- الملك المتوج!

فقلت: إنك مجنون؟

- إذا عدنا وأخبرناهم بالحيلة التي لجأنا إليها.. فأي وزن تقيمه لحياتنا؟

– الوزن الذي تستحقانه.

فاستطرد: وعرش الملك؟ هل تظن أن الإشراف والشعب سيسرهم أن نسخر منهم كما فعلنا؟ هل تظن أنهم يقبلون ملكا عاقته شدة سكره عن التتويج، فأرسل خادما ليأخذ مكانه؟

فقلت: وأنا غاضب بعض الشئ، – كان مخدرًا – ثم أنني لست خادما.

– إني أضع أمامك القصة كما سيذيعها بلاك ميكل، لو أنك أيها الفتى تقوم بدور الرجل فإنه ما زال في استطاعتك إنقاذ الملك.. عد، واحتفظ له بالعرش دافئا.

– ولكن الدوق يعرف الحقيقة – كما سيعرفها خدمه.

فصاح: نعم... ولكنهم لن يستطيعوا الكلام كيف يمكنهم أن يكشفوا حقيقتك دون أن يدعوا كل إنسان يعرف بما فعلوا؟، أفي استطاعتهم أن يقولوا: "هذا ليس الملك، لأننا أخذنا الملك أسيرا، وقتلنا خادمه؟" .

انكشفت لي حقيقة الموقف في الحال، فسواء عرفني ميكل ولم يعرفني فليس في استطاعته أن يتكلم، وماذا يستطيع أن يفعل إذا لم يظهر الملك؟، وإذا ظهر الملك فماذا يكون من شأن أطماعه، ومع ذلك فقد وضحت أمامي أيضًا الصعوبات والمخاطر التي أعرض نفسي لها.

قلت أحثه: لابد أن يفتضح أمري.

– ربما، ولكن لكل ساعة قيمتها، وفوق كل شئ يجب أن يكون لنا ملك في سترلزو وإلا وقعت المدينة في قبضة ميكل في مدى أربع وعشرين

ساعة، فأي قيمة تكون لحياة الملك عندئذ إذا فرض وكان على قيد الحياة؟

– نعم، فربما كانوا يجهزون عليه الآن، سابت، لنفرض أنهم فعلوا ذلك؟

– لن يفعلوا إذا ذهبت إلى سترلزو، هل تظن أنهم سيقتلونه قبل أن يتخلصوا منك؟

كانت خطة عنيفه بل أقرب إلى الفشل من تلك التي أنفذناها في ذلك اليوم، لكن كان يخيل ألا مخرج آخر لي من تلك الورطة أضف إلى ذلك أنني كنت شابا يستهويني الخطر.

صحت: سأحاول يا سابت!

– حسنا. والآن. يجب أن نرحل في الحال.

فقلت: ينبغي أن ندفن جوزيف المسكين.

– لا وقت لدينا لذلك.. أوه! حسنا، كما تشاء، سآتي بالجياد، أسرع.

حملت جوزيف الأمين بين ذراعي، وصعدت به من البدروم فقابلت سابت عند الباب فقلت:

– ضعه فوق الأرض، فسيأتي من يتكفل بهذه المهمة عنك.

وأخذني إلى النافذة، فرأيت جماعة مكونة من ثمانيه من الفرسان على مبعدة ثلثمائة ياردة في طريق زندا، وكان بعضهم يحملون معاول، ولا ريب أنهم موفدون من قبل ميكل ليزيلوا كل الآثار التي تنم عن فعلتهم الشريرة، فأشرت إلى جثة الميت الممددة فوق الأرض، وقلت، يجب أن نضرب ضربة من أجله يا كولونيل.

– هذه مجازفة يا صاحب الجلالة، لكن حسبنا إذا قتلنا فسيوفر علينا ذلك عناء التفكير، سأريك كيف تمكننا مهاجمتهم.

وانطلقنا بحذر إلى الباب الخلفي، واعتلينا ظهري جوادينا.

سأل سابت: هل مسدسك معه؟

فقلت: لا فالحسام لي، فقال ثابت وهو يضحك:

– أعطش أنت الليلة؟، حسنًا.

واستللنا حسامينا، وبمجرد أن سمعنا صوت الرجال عند واجهة بيت الصيد، همس سابت:

– الآن !! فاندفعنا بأسرع ما أمكننا حول البيت، وفي لحظة كنا بينهم، وقد خبرني سابت فيما بعد أنه قتل رجلا، وإني أصدقه، ولكنني لم أكن أراه وأما أنا فقد شججت رأس رجل يمتطي صهوة جواد أسمر، فسقط على الأرض ثم وجدت نفسي أواجه رجلا ضخم الجسم، كما أنه كان هناك آخر بجانبي، فاندفعت نحو أولهما، ودفنت حسامي في صدره في اللحظة التي أطلق فيها مسدسه، وقد أزت الرصاصة قريبا من أذني، وكانت المعركة قد حمى وطيسها، فلم أستطع حتى سحب حسامي، فتركته في جسم الرجل، وانطلقت بكل سرعة في أثر سابت الذي كنت أراه على مبعدة عشرين ياردة ولوحت بيدي في مرح، ولكني أرخيتها في اللحظة التالية وأنا أصرخ، فقد مستها رصاصة، وشعرت بالدم يسيل فوقها، وفي لحظه أو اثنتين غبنا عن الأنظار.

وضحك سابت، ثم قال: حسنا، سيكون لجوزيف النحيل رفقاء، تنبهوا إليك؟

لقد تنبه إلى الرجل الضخم، فحين كنت أضربه، سمعته يقول: "الملك"!

حسنا، سنهيئ لبلاك ميكل بعض المتاعب.

الفصل الخامس

وصلنا إلى القصر ثانيه دون أن نتعرض للخطر، وبالرغم من أن الساعة كانت قد جاوزت الثامنة فإننا لم نقابل إلا أناسا قلائل جدا، وقد كنت متشحا جيدا حتى لم يكن يظهر من وجهي شئ، وإذا دخلنا غرفة الزينه من الباب السري رأينا فريتز راقدا بكامل ثيابه فوق إحدى الأرائك، وسرعان ما وثب واقفا، وصاح وهو يقبض على يدي ويقبلها:

– حمدا لله يا مولاي، لأنك سالم.

فضحك العجوز سابت القاسي، وقال، هذا حسن يا فتى سنفلح وعندما أدرك فريتز الحقيقة، سقط فوق الأريكة وصاح أين الملك؟، فقال سابت: صه أيها الأحمق لا تتحدث هكذا بصوت عال هو ذاك الملك، حيا على ما تعتقد.

وبعد أن تظاهرت بأنني كنت نائما في الفراش نهضت، وأفطرت، ثم لقنني سابت درسا في واجباتي مدته ثلاثة ساعات، وقد خيل إلي أنه إذا كانت حياة الملك الحقيقي شاقة، فإن حياة دعى الملك أكثر مشقة، ثم جاء وزير المالية لزيارتي، ومعه أوراق ووثائق تنتظر توقيعي وقد أثبتت أصبعي المجروحة أنها نافعه جدا في هذا الموقف، إذ أبعدت الريبة عما طرأ على خطى من تغيير، وأعقب ذلك مقابلة بعض السفراء، والواقع أنه كان يوما شاقا وأخيرا اختليت بسابت وفريتز، وكان علينا أن نقرر ما الذي سنفعله.

قال فريتز: ينبغي أن نذهب للقبض على بلاك ميكل في الحال.

فقال سابت يستحثه: مهلا، مهلا.. هل يقع ميكل ويترك الملك حيا؟

وقلت: كيف يستطيع الملك بغير ما سبب واضح، أن يهاجم أخاه العزيز؟ لن يوافق الشعب على ذلك.

فقال فريتز: ألا نفعل شيئا إذن؟

وقلت: يخيل إلي أن ميكل وأنا في مركز رجلين يشهر كلاهما مسدسه في وجه الآخر، فإن كلينا لا يستطيع أن يبدأ غريمه بالعدوان، ولكن لما كان هو الذي سيغنم من العمل السريع فيجب إذن أن أتريث ريثما يتحرك.

فقال فريتز: إن ثلاثة من أعوان ميكل الستة المشهورين موجودون في سترلزو.

فسأل سابت بلهفة: ثلاثة فقط؟! إذن فالثلاثة الآخرون يحرسون الملك في زندا ومعنى ذلك أنه لا يزال حيا.

فتهلل وجه فريتز وقال: بالطبع لو كان الملك قد مات لجاء الستة جميعهم إلى هنا مع ميكل، فقد عاد ثانية كما تعلم، فسألت: أيها السيدان.. من هم الستة المشهورون؟

فقال سابت: عما قريب تقابلهم، إنهم ستة رجال من أعوان ميكل لا يحجمون عن الأقدام على أي شئ في سبيله، ومنهم ثلاثة روريتانيون، وفرنسي واحد، وآخر بلجيكي، وانجليزي.

وقال فريتز: لو أمر ميكل أيا منهم لما تردد في ذبح أي إنسان.

فقلت: ربنا ذبحوني.

فقال سابت: لا شئ أكثر احتمالا من ذلك، من منهم هنا يا فريتز؟

– برسونين ودي جوتيه وديتشارد.

– الأجانب! إن المسألة واضحة تماما، فالروريتانيون يحرسون الملك، كيلا يتمكنوا من أن يقولوا شيئا عن ألعوبة ميكل، إنهم شركاؤه فيها.

كانت خطتي تتضمن التقرب من الشعب على قدر طاقتي، ولذا أمرت بإحضار جوادي، وانطلقت في جولة مع فريتز في الحديقة الجميلة، ومنها سرنا في بعض الطرقات، ولما كنت قد جمعت حولي جمهرة من السابلة فقد ذهبت إلى منزل الأميرة فلافيا، فأحدث ذلك كثيرا من الاهتمام، إذ كنت سمعت صيحات الاستحسان من كل جانب وفي أثناء اجتماعي بوزير المالية، كان قد لمح إلي أنه يسعد الشعب جدا أن يعرف بأمر خطوبتنا (أنا والأميرة)، وذلك على الرغم من أنه لم يكن يدرك العقبات التي تعترض مثل هذا السبيل، ولما كانت الأميرة محبوبه جدا فإنني لم أر ثمة ضرر ينجم عن زيارتي لها، في حين أن مثل هذه الزيارة قد تدعم مركز الملك، وكان فريتز متحمسا بشكل مدهش لهذه الزيارة، وقد اكتشفت أنه كان متلهفا جدا على رؤية صديقة الأميرة ووصيفتها الكونتس هلجا.

كان الدور الذي سألعبه شاقا، فقد كان علي أن أظهر الحب، ولكن لا أحسه، وأن اكتسب عطف الأميرة، دون أن أبدي اهتماما شخصيا، وقد زاد في صعوبه دوري أن الأميرة كانت أجمل فتاة وقع عليها بصري، قالت:

– إني مسرورة وفخورة بأن أرى التغيير الذي طرأ عليك، إنك كأمير

قصص شكسبير الذي تحول إلى رجل آخر عندما صار ملكًا، حتى وجهك قد تغير، كان هذا الموضوع خطرًا، فغيرته.

– سمعت أن أخي قد عاد، ويخيل أنه قام برحلة.

قالت، ولما يبد عليها الابتهاج: نعم.. إنه هنا...

– حسنًا، إننا جميعا مسرورون برؤيته، وكلما كان قريبا منا كان ذلك أفضل.

فابتسمت الأميرة.. وقالت: هل تعني يا ابن العم..؟

– إنه في استطاعتنا أن نرى جيدا ما هو فاعل، أنا لا يهمني على الإطلاق ماذا يفعل الدوق ميكل.. لو أني كنت ملكًا.. لشعرت بمدى تشجيعها لي.

وفي تلك اللحظة ارتفع هتاف من الشارع، فأسرعت الأميرة إلى النافذة وهتفت: إنه هو !!، إنه الدوق ميكل نفسه، فابتسمت، ولكني لم أقل شيئا، وسمعت صوت أقدام خارج الغرفة فأخذت أتكلم في موضوعات عامة، واستمر ذلك لبضع دقائق، فعجبت ماذا حدث لميكل، ولكن كان يبدو أنه ليس من حقي أن أتدخل، وعلى حين غرة، ولشديد دهشتي، سألتني فلافيا بصوت قلق:

– هل أنت من العقل حتى تغضبه؟

– ماذا؟ من؟ وكيف أغضبه؟

– بإبقائه في الانتظار طبعا.

– يا ابنة العم العزيزة. إني لا أريد أن أستبقيه.

– حسنا، هل يباح له الدخول؟

– بالطبع إذا كنت ترغبين في ذلك.

فنظرت إلي بتعجب، وقالت: يا لك من شخص مضحك، فأنت تعلم ألا أحد يستطيع الدخول أنت هنا.

وذلك امتياز جميل من امتيازات الملك، على أني لعنت فريتز في سري لأنه لم يخبرني بتلك الحقيقة التي جعلتني أندفع للوقوع في غلطة خطيرة وقفزت واقفا، وتقدمت من الباب، وأدخلت ميكل، وأنا أقول: لو أني كنت أعرف أنك هنا، لما جعلتك تنتظر لحظة واحدة فشكرني ولكن ببرود، وقد كانت للرجل صفات كثيرة، ولكنه لم يستطع أن يرى أنه كان يبغضني، ويبغض أشد البغض أن يراني مع الأميرة فلافيا، إذ كان يعلم أنني لست الملك، بيد أنني أعتقد أنه حاول ألا يكتم عني أنه يعرف.

قال:

– إن يدك مجروحة يا مولاي.

فأجبت بغير اهتمام: نعم كنت ألاعب كلبًا فحاول أن يعضني.

ففهم ما أعني، وابتسم في مرارة.

وسألت فلافيا بلهفة: لكن أليس هناك خطر من عضته؟

فقلت: لا خطر من هذه العضة، لكن لو أنني أعطيته الفرصة لكانت عضته أليمة، ولاختلف الأمر يا ابنة العم.

فأردفت:

– لكن لا ريب أن الكلب أعدم؟

– كلا، بعد.. إننا منتظرون لنرى إن كانت عضته مضرة.

فسأل ميكل:

– وإذا كانت كذلك؟

فقلت:

– يضرب على أم رأسه.

وهنا تذكرت أنه يجب أن أظهر بمظهر الصديق، فرحت أرفع من قدر ميكل وأطلعه على الاستعدادات المدهشة التي اتخذناها لحفلة التتويج، وحالة الجيش ولكنه لم يستطع أن يتحمل ذلك، فنهض فجأة واقفا وقال: ثلاثة من أصدقائي يتوقون جدا إلى المثول بين يدي جلالتكم، وهم هنا في الغرفة الخارجية.

فقلت بتأدب:

– إن أصدقاءك هم أصدقائي، كما آمل.

وسرت معه إلى الباب فودع الأميرة، ومن ثم تأبطت ذراعه، وقد سرني ما بدا على وجهه، وإذ دخلنا الغرفة الأخرى نادى ميكل رجاله وقدمهم واحدًا فواحدًا فقبلوا يدي، وكان دي جوتيه رجلا طويل القامة رفيعها له شارب كبير وأما برسونين البلجيكي فكان أميل إلى البدانة، متوسط الطول، ورغم أنه كان صغيرا فلم يكن له شعر، وأخيرًا ذلك الإنجليزي ديتشارد وكان

رجلا ضيق الوجه قصير الشعر جميله، وبشرته سمراء، وكان يبدو عليه أنه مقاتل قوي تتجسم فيه الخيانة، فتحدثت إليه بالإنجليزية في لهجة أجنبية، وفي اعتقادي أنه ابتسم ولو أنه أخفى ابتسامته من فوره

فقلت في نفسي: إذن فمستر ديتشارد مطلع على السر.

وإذ رحلوا أخيرا عدت إلى الأميرة لأودعها.

فقالت في صوت خافت جدا: رودلف.. كن حذرا.. أليس كذلك؟

– مم؟

– أنت تعرف – لا يمكنني أن أقول ولكن فكر في أن حياتك لـ – حسنا لـ؟ – لرويتانيا.

أكنت على صواب أم على خطأ في القيام بهذا الدور؟ لست أعلم بيد أنني همست برفق:

لرويتانيا فقط؟

فاحمر وجهها وقالت: ولأصدقائك أيضا

– أصدقائي؟

فهمست: ولابنة عمك

فلم أستطع الكلام.. وقبلت يدها.. وانصرفت وأنا ألعن نفسي.. وكان فريتز جالسا على الأريكة مع الكونتس هلجا غير عابئ بما يعتقده الخدم.. فوثب واقفا.. وغادرنا الدار.

الفصل السادس

مرت عدة أيام، وكان سري لا يزال محفوظا على الرغم من أنني كنت عرضة للخطر في بعض اللحظات لأنني ارتكبت عددا من الأخطاء، مهما يكن فقد نجوت من الافتضاح، وأظن أن السبب يرجع إلى الجرأة الشديدة التي عمدنا إليها في التضليل، وفي اعتقادي أنه أيسر لي أن أدعي بنجاح أنني ملك عن أن أدعي أنه أقرب جيراني إلي، وذات يوم جاء سابت إلى غرفتي، وألقى إلي برسالة فوق المنضدة وهو يقول: هذه لك – وهي بخط امرأة على ما أعتقد – ولكن لدي لك بعض الأخبار أولًا، إن الملك في قلعة زندا.

– وكيف عرفت ذلك؟

– لأن النصف الثاني من أعوان ميكل الستة هناك، لقد قمت بالتحريات اللازمة فوجدت أن ثلاثتهم جميعا هناك – لونجرام وكرانشتين وروبرت هنتسو، وهم ثلاثة أشرار.

– هل تعتقد أن الملك هناك بالتأكيد؟

– نعم فقد استبقت الفنطرة مرفوعة، ولا يسمح لأحد بالدخول أو الخروج بدون أمر ميكل أو روبرت الشاب.

فقلت: ينبغي أن أذهب إلى زندا.

– ليس الآن يا فتى.. يجب أن تكون حذرًا، إن هجومًا مكشوفًا معناه موت الملك، ماذا في الرسالة؟

ففضضتها وقرأتها بصوت مرتفع: "إذا رغب الملك في أن يعرف شيئا على جانب من الأهمية بالنسبة إليه فليأت وعيدًا إلى المنزل الذي في نهاية الشارع الجديد عند منتصف الليلة، والمنزل في حديقة كبيرة، وهناك بوابة صغيرة في الجدار الخلفي، فإذا فتح البوابة واستدار إلى اليمين، ومشي عشرين ياردة فسيجد بيتا صينيا له ست درجات، وسيكون في انتظاره بالداخل من يخبره بأمر من الأهمية بمكان، إذ أنه يتعلق بحياته وعرشه، فقد حرر هذه الرسالة صديق مخلص، فإذا رفض الملك هذه الدعوة، فستتعرض حياته للخطر، لكن يجب أن يأتي وحيدا، وليحذر من اطلاع أحد على هذا، وإلا حطم حياة أمرأة تحبه، إن بلاك ميكل لا يعفو." .

قال سابت عندما فرغت من القراءة: لا، ولكنه يستطيع أن يملي رسالة بديعة.

وكذلك ظننت، وكنت على وشك أن أقذف بالرسالة بعيدًا، عندما تبينت أنه لم تزل بها كتابة على الوجه الآخر. استمر الكاتب: "وإذا ترددت تحدث إلى الكولونيل سابت" فصاح سابت مأخوذا: إيه! أتراها تحسبني أشد حماقة منك؟.

فقرأت: سله عن المرأة التي تبذل كل ما في استطاعتها لتحول دون زواج الدوق من ابنة عمه أو بالأحرى من أن يكون ملكًا؟ إن اسمها يبدأ بحرف(أ).

فقفزت واقفا بينا ترك سابت غليونه، وصحت: إنها انطوانيت دي موبان!

فسأل: وكيف عرفت ذلك؟

فأخذت أقص عليه ما أعرفه عن هذه السيدة، فقال متفكرا:

نعم، صحيح أنها تشاجرت مع ميكل فقلت معقبا: "في استطاعتها أن تفيدنا إذا أرادت".

– إني على الرغم من ذلك أعتقد أن ميكل هو الذي أملى هذه الرسالة.

– وكذلك أنا ولكني أريد أن أعلم بالتأكيد، سأذهب يا سابت، فأجاب: لا، سأذهب أنا.

فقلت: يمكنك أن تذهب حتى البوابة.

– سأذهب إلى المنزل الصيفي.

فقلت وأنا أميل إلى الخلف في مقعدي:

– يا سابت.. إني أثق في هذه المرأة، وسأذهب.

فأجاب: وأما أنا فلا أثق في أية امرأة، ولن تذهب.

– إما أن أذهب إلى المنزل الصيفي أو أعود إلى انجلترا.

بدا سابت يعرف إلى أي حد كان يستطيع أن يقودني أو يسوقني ومتى يجب أن أنقاد فقال مؤمنا: ليكن.

وبالاختصار امتطيت أنا وسابت صهوتي جوادينا في الساعة الحادية

عشرة والنصف تلك الليلة، بينا تركنا فريتز ثانية للحراسة كان الليل مظلما، وحملت مصباحًا وسكينًا ومسدسًا وأخيرًا وصلنا إلى خارج البوابة فترجلت.

قال سابت: إذن سأنتظر هنا، وإذا سمعت طلقًا ناريًّا فابق حيث أنت، فهذه هي فرصة الملك الوحيدة، وينبغي ألا تقتل أنت أيضا.

– إلى على حق يا فتى، حظ سعيد!

نفذت من البوابة بهدوء ودخلت إلى الحديقة، ثم انحرفت إلى اليمين كما جاء في الرسالة وتقدمت في حذر في الممر، ومصباحي مغلق، ومسدسي في يدي الأخرى، وسرعان ما وصلت إلى جسم كبير معتم – وكان هو المنزل الصيفي – فارتقيت الدرج بهدوء، ورفعت الباب ودخلت، فخفت إلى امرأة وأمسكت بيدي ثم همست: أغلق الباب ففعلت،ثم صوبت ضوء مصباحي إليها.

كانت أنطوانيت دي موبان وكان تبدو جميلة جدا في ثيابها المدهشة وسط هذا الظلام الشامل وأما الغرفة الصغيرة فكانت عارية عن الأثاث اللهم إلا من مقعد أو اثنين ومنضدة حديدية صغيرة كالتي يراها الإنسان في المقاهي.

قالت: لا تتكلم فلا وقت لدينا اصغ إلي!، إني أعرفك يا مستر راسنديل لقد كتبت هذه الرسالة بأمر من الدوق.

فقلت: هذا ما ظننته

– سيأتي إلى هنا ثلاثة رجال ليقتلوك بعد عشرين دقيقة..

– ثلاثة.. أهم الثلاثة؟

– نعم.. فيجب أن نرحل قبل ذاك وإلا فستقتل.

– أو يقتلون.

– اصغ !، عندما تقتل ستحمل جثتك إلى حي من المدينة الوضيعة حيث يعثر عليها هناك وفي الحال يقبض ميكل على جميع أصدقائك – سابت وفريتزيون نارلنايم – ويأمر بوضع المدينة تحت مراقبة الجيش ثم يبعث برسول إلى زندا، فيقتل الثلاثة الآخرون الملك في القلعة وعندئذ ينادي بنفسه ملكا ويتزوج الأميرة.

– إنها خطة بديعه، ولكن لماذا يا سيدتي؟

– قل ما تشاء من الأسباب، ولتكن الغيرة إذا شئت.. والآن اذهب ولكن تذكر ليل نهار أنك لست آمنا، هل معك حرس سري يتعقبك؟

فقلت:

– نعم، وهي فكرة سابت.

– حسنا، إن ثلاثة رجال يتعقبونهم فإن أعوان ميكل الثلاثة لا يبعدون عنك أبدا أكثر من مائتي ياردة، والآن اذهب ولكن لا عن طريق البوابة فلا ريب أن هناك حارسا الآن، يوجد سلم موضوع على السور في هذه الناحية من المنزل الصيفي فتسلقه وانج بحياتك

فقلت: سيدتي لقد أسديت للملك خدمة جليلة ولو أن معنى ذلك أنك عرضت نفسك للخطر، ففي أي مكان من القلعة هو؟

فخفضت صوتها إلى همس مخيف:

–عندما تعبر القنطرة تصل إلى باب ضخم يقع من خلفه، اصغ؟ ما هذا؟

كان هناك وقع أقدام بالخارج.

– إنهم قادمون! لقد جاءوا مبكرين، أغلق مصباحك!

ففعلت كما قالت ونظرت خلال شق في الباب، فاستطعت أن أرى ثلاثة أشباح فأخرجت مسدسي! بينا أسرعت أنطوانيت تضع يدها فوق ذراعي وقالت: قد يمكن أن تقتل واحدا، ولكن ماذا يكون بعدئذ؟، ارتفع صوت من الخارج يتكلم الإنجليزية الصحيحة: مستر راسنديل؟ فلم أحر جوابا.

– نريد أن نتحدث إليك، فهل تعد ألا تطلق النار حتى تنتهي؟

– أهو مستر ديتشارد الذي أتشرف بمحادثته؟

– دعنا من الأسماء.

– إذن فدع اسمي وشأنه.

– حسنا، يا مولاي، لدي هبة نعرضها عليك.

وكانت عيناي لا تزالان على الشق، وكان الثلاثة قد ارتقوا درجتين أخريين، مسدساتهم مصوب إلى الباب.

– أتسمح لنا بالدخول؟ إننا نقسم لك بشرفنا ألا نطلق النار فهمست

أنطوانيت: لا تثق بهم، فقلت: يمكننا أن نتكلم خلال الباب.

– هل تعد ألا نفتحه وتطلق النار؟

فأجبت: سأعد ألا أطلق النار قبل أن تفعلوا ولكني لن أدخلكم فقفوا خارجا وتكلموا.

فقال درتشارد: هذا معقول.

وفيما كنت أنظر خلال الشق رأيتهم يقفون فوق قمة الدرج خارج الباب مباشرة، قالت انطوانيت ثانية: "لا تثق بهم"، ولكني لم أكن بحاجة إلى تحذيرها فقد كنت أعرف أنهم يقصدون اقتحام الباب علي عندما أبدأ في الحديث قلت:

– حسنا، أيها السادة، ما هي الهبة؟

– الذهاب بك إلى الحدود سالما، وخمسون ألف جنيه انجليزي.

فأجبت:

– هذا يبدو جميلا، امنحوني دقيقة لأفكر، وتحولت إلى انطوانيت وهمست: قفي لصق الجدار، بعيدا عن خط النار من الباب فسألت ملتاعة: ماذا ستفعل؟.

فقلت:

– سوف ترين، ورفعت منضدة الشاي الحديدية ولم تكن ثقيلة بالنسبة لرجل في مثل قوتي، وأمسكتها من قوائمها، وكان سطحها بمثابة درع تام لرأسي وجسمي وربطت مصباحي المغلق في حزامي ووضعت مسدسي في

جيبي ثم تراجعت إلى مؤخرة الغرفة ورفعت المنضدة أمامي وصحت:

– حسنا أيها السادة، إني أوافق على الهبة معتمدا على شرفكم، فإذا اقتحمتم االباب، فقال دريتشارد: أفتحه بنفسك، فقلت: إنه يفتح للخارج، ابتعدوا قليلًا إلى الخلف أيها السادة وتظاهرت بأني أحاول فتح الباب، ثم تسللت عائدًا إلى مكاني، وقلت: إنه لا يفتح تماما اجذبوه من ناحيتكم.

فصاح ديتشارد:

– سأفتحه، ماذا يا برسونين أخائف أنت من رجل واحد؟.

فابتسمت فيما بيني وبين نفسي، وما هي إلا لحظة حتى فتح الباب ووقف الثلاثة هناك ومسدساتهم مصوبة إلى رأسي، فصحت: واندفعت بكل قواي وحملت عليهم فانطلقت ثلاث طلقات ولكن درعي حمتني، وفي اللحظة الثانية كنت بينهم أو بعبارة أخرى كانت المنضدة، وتدحرج أربعتنا معًا في كومة مضطربة فوق الدرج فصرخت انطوانيت دي موبان، ولكني نهضت واقفا وأنا أضحك عاليا، وكان دي جوتيه وبرسونين ممددين فاقدي الحس، أما ديتشارد فكان تحت المنضدة ولكني إذا نهضت دفعها عنه وأطلق النار الثانية فأخرجت مسدسي وأطلقته عليه فسمعته يسب، وعندئذ عدوت كالريح مبتعدا عن المنزل الصيفي إلى جانب السور، وقلت: أتوسل إليك يا إلهي أن تكون قد أصدقتني القول عن السلم؟،كان السور عاليا نعم، لقد كان السلم هناك فتسلقته، وعبرت السور في دقيقة، وعدوت في الخارج فرأيت الجوادين، ثم سابت وكان يجاهد في فتح قفل البوابة، المغلقة الآن، ويطلق الرصاص في ثقبه كرجل مجنون، فقد نسي تماما أنه كان عليه ألا يشترك في القتال.

فهتفت وأنا أضحك: تعال هنا؟

– أسالم أنت؟ علام تضحك.

فأجبت:

– أربعة من السادة حول منضدة شاي، فقد كان من الظريف حقا رؤية الثلاثة المشهورين الخطرين ينهزمون بسلاح لا يعدو في خطورته منضدة شاي عادية.

أضف إلي هذا ما رأيته من أنني حافظت على كلمة الشرف ولم أطلق النار حتى فعلوا.

الفصل السابع

علمت من تقارير البوليس السري في اليوم التالي أن ميكل غادر سترلزو ومعه أعوانه الثلاثة، وقد اتضح أن ريتشارد كان معصوب الذراع، وقد سرني أن أسمع أني تركت أثري في الرجل وكذلك رحلت انطوانيت دي موبان فلا ريب أنهم كانوا ذاهبين إلى زندا، أما ما كان أكثر أهمية بالنسبة إلي فالحقيقة التالية في التقرير.

"إن الملك ينتقد كثيرا على عدم اتخاذه أية خطوات تتعلق بزواجه، والمعتقد أن الأميرة فلافيا حزينة أيضا، وكثيرون من الناس يذكرون اسمها مقرونا باسم دوق أوف سترلزو" .

قال سابت: لقد طلب إلى مدير البوليس أن يتحدث بمنتهى الصراحة.

فلما بدر مني صوت يدل على الغضب، قال فريتز: إن الشطر الخاص بالأميرة صحيح جدا. فقد أخبرتني الكونتس هلجا أن فلافيا كانت قد أولعت بالملك جدا، فصحت: كفى!.

فقال سابت: لقد أمرت بإقامة حفلة راقصة كبرى الليلة في القصر الملكي تكريما للأميرة.

فقلت وأنا لا اشعر بالابتهاج: هذه أخبار جديدة علي.

فقال فريتز: لقد عملت جميع الترتيبات.

وتقدم سابت مني وقال بلهجة حادة: يجب أن تعرض عليها الزواج عندما تتكلم معها الليلة.

– يا للسماء!

فقال سابت: أكبر الظن أنك غازلت فتاة قبل الآن، هذا كل ما هي بحاجة إليه.

فقلت: إني أرفض بتاتًا، لن أشترك في أية خطة يراد منها العبث بالأميرة.

فنظر سابت إلي بعينيه الضيقتين الماكرتين، ثم ابتسم وقال: حسنا يا فتى، يجب ألا نكرهك أكثر من ذلك، لكن تحدث إليها بلطف إذ لا يمكننا أن نسمح لها بالاختلاف مع الملك.

ذهبت مع فريتز إلى الحديقة في جولة قصيرة، وكنت أعرف كل المعرفة لماذا تخلى سابت عن الضغط علي لكي أبث الأميرة غرامي، فهو كان يعرف أن جمالها وعواطفي الخاصة قد تدفعانني إلى مدى أبعد من كل حججه، وليس من شك في أنه قد فطن إلى التعاسة التي كان يجرها عليها، بيد أن ذلك لم يكن يعنيه في شئ، فلو حدث أن أنقذ الملك فلابد لها أن تتزوجه – سواء عرفت بالتغيير أو لم تعرف، وإذا لم يعد بعد – حسنا – فذلك ما لم نتكلم في شأنه قط، ولكني أعتقد أن سابت كان ينوي إبقائي فوق العرش عن تمكين بلاك ميكل من الحصول عليه، وكانت حفلة الرقص شائقة للغاية، كيف كنت أستطيع أن أظل باردا غير مكترث وأنا بجانب مثل هذه المرأة الجميلة وخصوصا عندما قابلت عيناها عيني؟

وأمام الجميع أخذت شريط وردة روريتانيا الحمراء من عنقي وعلقته

حول عنقها، فصفق الحاضرون وهللوا، ورأيت سابت يبتسم وفريتز يعبس، فلما انتهى كل شئ اختليت بالأميرة في غرفة صغيرة تطل على الحديقة، وكانت جالسة وأما أنا فكنت واقفا قبالتها، وكنت أجاهد مع نفسي، فلو أنها لم ترن إلي ببصرها فأني أعتقد أنه كان في استطاعتي أن أكسب المعركة، ولكنها رنت إلي بنظرة واحدة مفاجئة، فضعت!.

نسيت الملك في زندا، نسيت الملك في سترلزو، كانت أميرة وأنا مخادعها، فهل أني تذكرت ذلك؟ ألقيت بنفسي عند قدميها راكعا وأخذت بيديها بين يدي ولم أقل شيئا، وماذا أقول؟ ثم دفعتني بعيدا، وصاحت فجأة: آه، أهذا حق؟ أم هذا فقط لأنه واجب عليك؟

قلت: إنه حق لأنني أحبك أكثر من الحياة – أو الحقيقة – أو الشرف؟

فلم تؤول معنى كلماتي بل اعتبرتها بعض مبالغات الحب

– كيف حدث أني أحبك الآن يا رودلف؟

– الآن؟

– نعم.. أخيرا.. فإني لم أحبك قط من قبل.

وغمرتني عاطفة من الفوز الخالص، لقد كنت أنا، رودلف راسنديل، هو الذي أحبته، كم كان جميلا مذاق الحب!

– ألم تحبيني من قبل؟

فرفعت عينيها إلى وجهي وقالت باسمة:

– لابد أن يكون السر في تاجك لقد شعرت بالحب لأول مرة يوم التتويج.

– أوه يا فلافيا، لو لم أكن الملك!

فقالت:

– كنت أحبك نفس الحب مهما كنت.

كانت أمامي فرصة لإنقاذ شرفي، وبدأت أقول في صوت غريب جاف وكأنه ليس صوتي:

– فلافيا.. إنني لست..

دبت خارج النافذة قدم ثقيلة ثم ظهر سابت، فتلاشت عبارتي نصف الملتهبة فوق شفتي وعبس سابت ثم انحنى.

– ألف معذرة يا مولاي، ولكن الكردينال ينتظر جلالتكم منذ ربع ساعة ليحييكم.

فواجهت عينيه بشجاعة، وقرأت فيهما تحذيرا غاضبا، ولست أعرف كم من الوقت بقي يسترق السمع إلى كلامنا ولكنه قطع علينا الحديث في الوقت المناسب.

قلت:

– يجب ألا أدع الكردينال ينتظر.

فصاحت فلافيا:

– أوه أيها الكولونيل سابت، كم أنا سعيدة!

لم يكن معنى كلامها قابلا للتأويل.. وإني أعتقد حقا أن رنة رقيقة كانت تشوب صوت سابت عندما قال وهو يقبل يدها:

– ليحفظ الله سموك الملكي؟، ثم شد قامته وأضاف: ولكن قبل الجميع يأتي الملك.

فقالت فلافيا:

– نعم.. نعم.. ليحفظ الله الملك.

ذهبت إلى قاعة الرقص ثانية لأتلقى تحايا الوداع، ورأيت سابت يظهر ويختفي بين الجموع، وحيث كانت تكثر الابتسامات والهمسات، وكنت أعلم ماذا كان يفعل ذلك الشرير العجوز، كان ينشر الأنباء التي وقع عليها وذلك لينقذ التاج ويهزم بلاك ميكل – فذلك كان هدفه الوحيد – ومثل هذه الأنباء تنتشر سريعا، فعندما خرجت إلى البوابة الخارجية لأساعد الأميرة فلافيا في ركوب مركبتها كانت هناك جمهرة عظيمة في انتظارنا، ورحبت بنا بعاصفة من التهليل،فماذا كان في استطاعتي أن أفعل؟ لقد دفعتني حيل سابت وعاطفتي الجامحة إلى التمادي فيما كنت أخشاه بينما سد طريق العودة من خلفي، فما لم تريدني على أن أصبح مجرما، فبالله دعنا نذهب إلى زندا ونسحق بلاك ميكل ونحضر الملك، فقال: إذا كنت حاولت، فقاطعته: إذا كنت حاولت لاستطعت أن أتزوج الأميرة ولما كان في استطاعتك أن تفعل شيئا يمنعني من ذلك، هل تظن أن أحدا يصدق قصتك لو أنك قلت الحقيقة؟، فأجاب بهدوء: أعرف ذلك.

– إذن هل نحن ذاهبون إلى زندا.

فأمسكني من يدي وصاح:

– أقسم بالله إنك أظرف الفبرجي فيهم جميعا !، ولكني خادم الملك ليحفظ الله الملك! هلم، سنذهب إلى زندا.

وسرعان ما رسمت الخطط.. فأصدرت الأوامر إلى الماريشال شتراكنتس بما يفعله فيما إذا قتل الملك – وقد ظن أنني أعني نفسي بالطبع – وشعر بقلق شديد من جراء كلماتي هذه وقال:

– فليحفظ الله جلالتكم.. أعتقد أنكم ذاهبون في رحلة خطرة.

فأجبت:

– آمل ألا تطلب حياة أخرى أثمن من حياتي.

كان من الصعب أن أنبئ الأميرة فلافيا أنني سأتركها، وقبل أن أذهب لمقابلتها كانت قد سمعت عن رحلة الصيد التي قيل في كل مكان أنني ذاهب إليها.

قالت بقليل من البرود: منمك

– يؤسفني أنه ليس في استطاعتنا أن نسري عن جلالتك هنا في سترلزو.. كان يجب أن أقدم لك تسلية أعظم ولكني كنت من الحماقة بحيث ظننت – إنك لبضعة أيام – بعد الليلة الماضية..

– نعم؟

– إنك قد تكون سعيدا دون مرح كثير.. لقد قيل لي إنك ذاهب لصيد الخنازير.. فآمل أن تشوقك الخنازير.

ورأيت دمعة تسقط، فلعنت نفسي وقلت: يا عزيزتي، هل تحلمين أني سأتركك كي أذهب للصيد!

– إذن ماذا؟

– حسنا، إنه الصيد، ولكن ميكل هو الخنزير.

فامتقع وجهها:

– أوه يا رودلف! متى ستعود؟

فأجبت بتألم:

– إني لا أعلم متى أعود – إني – إني لا أعلم متى أعود.

– تعال سريعا، رودلف! تعال سريعا!

– نعم.. أقسم بالله أني سأعود ثانية لأراك قبل أن أموت

– ماذا تعني؟

ولكني لم أستطع أن أخبرها بالحقيقة وقتذاك فقد سبق السيف العذل.

وقلت:

– ألا يعود الرجل إلى أجمل امراة في العالم؟ إن ألف ميكل لا يمكنه أن يمنعني عنك؟

طمأنتها هذه العبارة قليلا.وسألت:

– لن تجعل أحدا يمنعك عني؟.

– كلا يا حبيبتي.

ومع ذلك فقد كان هناك واحد – ليس ميكل – الذي لو أنه عاش لكان ينبغي أن يحول بيني وبينها.. والذي من أجل حياته كنت سأبتعد عنها لأجاذف بحياتي ولم أستطع أن أتحمل الموقف أكثر من ذلك.. فاندفعت إلى الشارع وركبت جوادي وسرت بأقصى سرعة إلى قصري.

وفي اليوم التالي، كنت في القطار مع سابت وفريتز وعشرة من السادة انتخبوا خصيصا للمهمة الحالية، وقد أخبروا بطرف من قصة الهجوم على البيت الصيفي، كما قيل لهم إن ميكل كان يحاول الحصول على العرش، وأن صديقا للملك سجين في قلعة زندا، وإن انقاذه هو أحد أغراض الرحلة ولما كانوا شبانا عالي الثقافة شجعانا مخلصين فإنهم لم يلحفوا في السؤال، كان يكفيهم أن ملكهم يحتاج إليهم، وكانوا على استعداد لخدمته حتى الموت.

كنا ذاهبين إلى قلعة تارلنهايم، وهي ملك لعم فريتز، وكانت عبارة عن بناء عصري يبعد حوالي خمسة أميال عن زندا في الناحية المضادة لتلك التي تقع فيها قلعة ميكل، وكانت قلعة تارلنهايم مشيدة فوق قمة تل وتحيط بها الغابات من جميع الجهات، غابات كان معلوما أنها مكتظة بالخنازير البرية، وبالطبع كان السبب الحقيقي الذي من أجله اخترنا (الصيد) إنه يجعلنا على مقربة جدا من بلاك ميكل وأما بلاك ميكل فما كانت قصة صيد الخنزير البري لتخدعه كان يعرف جيدا لماذا جئنا فكان من الطبيعي أن يتخذ من الإجراءات ما يحول بيننا وإتمام ما كنا نريد، ولم تكن هذه هي الصعوبة

الوحيدة، فكل حركة فعلناها كانت – وكان يجب أن تكون – معروفة للملأ، وتلك كانت صفات الملكية التي الفيتها جد متعبة.

كانت أغراضنا إخراج الملك من قلعة زندا حيًّا، وكان استعمال القوة عبثا لا طائل تحته فنجاحنا كان يتوقف على خدعه، وقد ظننا – وكنا على حق كما اتضح – أن ميكل لن يقتل الملك حتى يقتلني أولا، وإنه من المحتمل أيضا أن يظن أنني لم أكن أقوم بالدور من اجل الشرف ولكن من أجل نفسي. فمثله لا يستطيع أن يفهم كيف أن رجلا لا يدخر وسعا في فقدان ذلك المركز ليضع فيه رجلا آخر، كان غرضي من المجئ إلى زندا – من وجهة نظره – هو الحصول على الملك ميتا، وبذلك أستطيع أن أحصل على العرش والأميرة، وقد شجعني هذا الاعتقاد لأنه سيرغمه على الإبقاء على الملك حيا إلى وقت طويل ما أمكنه إلى ذلك سبيلا والله يعلم أني كنت بحاجة إلى شئ من الطمأنينة.

وعلى ذلك انتهت الرحلة ووجدت نفسي مرة ثانية في زندا.

الفصل الثامن

عرف ميكل بقدومي إذ لم تكد تنقضي ساعة واحدة على نزولي في قلعة تارلنهايم، حتى أوفد ثلاثة رجال للترحيب بي، وقد حمله احترامه الجم على ألا يرسل إلى الثلاثة الذين حاولوا قتلى، وإنما بعث الثلاثة الآخرين من أعوانه الستة المشهورين – الثلاثة السادة الروريتانين – لاونجرام وكرافشتين وروبرت هنتسو، وكانوا يكونون جماعة طريفة، وكان روبرت الصغير – إذ لم يكن يعدو الثالثة والعشرين من عمره – يتزعم الجماعة، وقد وجه إلي حديثا قصيرا مهذبا، فأعرب عن أسف أخي العزيز لأنه لم يستطع الحضور بشخصه، وذلك لأنه مريض.

فأجبت: يؤسفني أن أسمع ذلك يا سيدي، وآمل ألا يكون آخرون من جماعته مرضى، لقد قيل لي إن مستر ديتشارد جرح فهل هو أحسن حالا الآن؟

فضحك روبرت، وأما رفيقاه فلم يضحكا وقال روبرت: إنه يؤمل أن يجد الدواء عاجلا يا مولاي فضحكت بدوري، فقد كنت أعرف اسم دواء ديتشارد – إنه كان يدعى "الثائر" ثم استأذن الرسل، واستداروا لينصرفوا، فدفع روبرت شعره الأسود إلى الخلف وأشرق وجهه الجميل بابتسامة، ثم مشى متجاوزا سابت وقد تجسمت في عينيه نظرة السخرية والازدراء فاجهم وجه الرجل العجوز كالليل، ولم يتردد في لمس مسدسه كأنما بمحض الصدفة.

وبدلا من أن أتناول طعام العشاء في المنزل، أخذت فريتز معي وانطلقت إلى البلدة الأخيرة، حيث يوجد الخان الذي عرفته عند قدومي إلى روريتانيا،

ولم يكن ثمة خطر كثير من هذه الرحلة فقد كان الليل مقمرا، وكان الطريق في هذه الناحية من المدينة آهلا بالمارة ووضعت غطاء فوق وجهي لأحول دون أعين الفضوليين ومعرفة من أنا قلت لرفيقي ونحن راكبان: تطلب يا فريتز غرفة خاصة لسيدين من رجال الملك أحدهما يعاني ألما شديدا في أسنانه، وفي الخان فتاة جميلة فيجب أن تتأكد من أنها هي التي ستخدمنا عند العشاء.

– وكيف ذلك؟

– سأترك الأمر لك، ومهما يكن، فإنها إذا لم تخدمك أنت فستخدمني أنا، وإذ دخلنا إلى الخان، لم يكن ظاهرا مني إلا عيناي، وحصل فريتز على الغرفة ثم ذهب ليبحث عن الفتاة ولم يلبث أن عاد بعد قليل، وقال: إنها آتية.

وجاءت الفتاة فتركتها ريثما تضع النبيذ فوق المنضدة إذ لم أكن أرغب في أن يسقط منها وملأ فريتز كأسا وناولها لي، وسألت الفتاة بعطف:

– هل يعاني السيد ألما شديدا؟

فقلت وانا أطرح الغطاء عن وجهي:

– ليس حال السيد أسوأ من حاله عندما رآك آخر مرة.

فبدرت منها صرخة قصيرة، ثم صاحت:

– لقد كان الملك إذن! وقد قلت لأمي ذلك لحظة أن رأيت صورته، أوه، اصفح عني يا سيدي!

فقلت: إنك لم تفعلي شيئا يضر كثيرا.

– ولكن العبارات التي نطقنا بها!

– أغفرها لك، إذا رغبت في خدمة الملك.

– أوه، شكرا لك يا سيدي، يجب أن أذهب وأخبر أمي.

فقلت، وأنا أتكلف الرزانة:

– قفي، لسنا هنا الليلة للهو، اذهبي وأحضري طعام العشاء، ولا تنطقي لأحد بكلمه عن وجود الملك هنا، وعادت الفتاة بعد بضع دقائق، وكان طبيعيا أن تبدو على جانب عظيم من الفضول.

فسألتها، وقد بدأت في تناول الطعام:

– كيف حال جوهان؟

– أوه، ذلك الشخص يا سيدي، أعني يا صاحب الجلالة؟

– "سيدي" تكفي من فضلك، كيف حاله؟

فقالت:

– إننا لا نراه كثيرا الآن يا سيدي.

– ولم لا؟

فقالت وهي تلقي برأسها إلى الخلف:

– لقد قلت أنه يكثر من المجئ يا سيدي.

– لكن في استطاعتك أن ترجعيه إذا شئت؟

– ربما كان ذلك في استطاعتي يا سيدي. ولكنه كثير العمل الآن في القلعة.

– ولكن ليس هناك صيد الآن.

– كلا يا سيدي ولكنه يحرس القصر.

فضحكت، وقلت:

– هل تحول جوهان إلى خادم؟

– ليس في القلعة نساء يا سيدي أعني – أعني كخادمات – ويقولون، وقد يكون ذلك كذبا، إن هناك سيدة.

– ولكن جوهان يستطيع أن يجد من وقته متسعا لمقابلتك إذا سألته ذلك؟

– هذا يتوقف على الزمان والمكان يا سيدي.

– ألا تحبينه؟

– لست أنا يا سيدي، ولكنني أريد أن أخدم رجلا، الملك يا سيدي.

– حسنا، إذن أخبريه أن يقابلك في الساعة العاشرة من مساء غد عند علامة الأميال الثانية خارج زندا، فسألت بلهفة: أتريد به ضررا؟.

– لا أريد به ضررا إذا فعل ما سآمره به، والآن اذهبي وتذكري أنه لا يجب أن يعرف أحد أن الملك هنا، كنت أتكلم بقسوة ولكنني أعطيتها بعض المال.

ولما فرغنا من تناول الطعام، ركبنا عائدين إلى الدار، وإذا كنا خارج المدينة، قال فريتز:

– أتريد أن تقبض على ذلك الرجل جوهان؟

– نعم، أظن أن الفخ سيقتضيه، وحين وصلنا إلى الشارع المؤدي إلى قلعة تارلنهايم، أقبل سابت مندفعا للقائنا وقال: شكرا لله على سلامتك.. ألم تر أحدا منهم؟

فسألت وأنا أترجل: ممن؟

فقال بلهجة جدية:

– يجب ألا تركب في هذا البلد يا فتى اللهم إلا إذا كان معك ستة رجال على الأقل هل تذكر شابًّا طويل القامة من حراسك اسمه برنتشين؟

وكنت أذكره تماما، فقد كان في مثل طولي، وكان شابا باسلا ظريفا.

– إنه ممدد في غرفته في الطابق العلوي وقد اخترقت ذراعه رصاصة، ماذا تفعل؟

فأردف سابت: لقد خرج بعد العشاء ليتجول في الغاب، وقد خيل إليه أنه رأى ثلاثة رجال بين الأشجار وكان أحدهم يسدد إليه بندقيته، ولما لم يكن مسلحا، فقد بدأ يعدو عائدا إلى القلعة، ولكن الرجل أطلق عليه النار، فأصابه وكان برنتشين حسن الحظ فوصل إلى هنا قبل أن يفقد رشده، فخاف مطاردوه أن يقتربوا من المنزل، وتوقف، ثم استطرد، لقد كنت أنت المقصود بهذه الرصاصة يا فتى.

فأجبت:

– محتمل جدا يا سابت، إني أريد أن أفعل شيئا قبل مغادرتي روريتانيا لاجازي الذين احتفوا بي على حسن صنيعهم.

– وما هو ذلك؟

– أن أقتل كل فرد من هؤلاء الستة، وبذلك أنظف المملكة من عناصر الشر والفساد.

وفي صباح اليوم التالي، كنت جالسا في الحديقة التي أمام القصر وأنا أشعر بقسط من الرضاء أكثر مما ألفته لوقت ما، فقد كنت أعمل شيئا على الأقل، والعمل وإن كان لا يشفي من الحب إلا أنه مخدر له، وفجأة، برز روبرت هنتسو من بين الأشجار، وكان يركب وكأنما هو في حديقة عامة، غير عابئ بما قد يدهمه من خطر على يد رجالي، وقد طلب الانفراد بي، ليفضي إلي برسالة من دوق سترلزو فأمرت أصدقائي بالابتعاد قليلا.

قال: يا راسنديل.. إن الدوق.

فاعتدلت في مجلسي، وقلت:

– هل أنادي أحدا من رجالي ليحضر لك جوادك يا سيدي؟

– ولم تستمر في الإدعاء؟

– ذلك لأنه لم ينته بعد، وفي أثناء ذلك أنا الذي أختار اسمي

– أوه.. حسنا (يا مولاي)، ولكني قلت ما قلت لأني أميل إليك، إنني معجب بك، فأنت تشبهني إلى حد ما، فأجبت شكرا لك، قد أكون كذلك،

إذا استثنينا إخلاصي، فإنني أحافظ على العهود مع الرجال والشرف مع النساء، فقد أكون يا سيدي.

فرمقني بنظرة غاضبة، فسألت:

– وما هي الرسالة؟

– إن الدوق يعرض عليك أكثر مما كنت أعرضه، فهو يعرض عليك الوصول سالما إلى الحدود ومائة ألف جنيه.

– إني أرفض بالطبع.

فابتسم وقال: لقد قلت لميكل إنك ستفعل، الحقيقة هي – فيما بيننا – أن ميكل لا يفهم الرجل المهذب فضحكت، وسألت: وأنت؟

فأجاب: إني أفهمه حسنا، إنك تضل الموت فليكن لك ما تشاء.

فقلت بتأدب: يؤسفني أنك لن تعيش لترى ذلك، كيف حال أسيركم؟

– الم..؟

– أسيركم؟

– أوه.. لقد نسيت رغباتكم يا مولاي، إنه حي.

فنهضت واقفا، فاقتدى، وقال في سخرية:

– والأميرة الجميلة؟ كيف حال الغرام؟

فزمجرت غاضبا، وأنا أتقدم نحوه خطوة مهددا:

– اذهب وجلدك سالم!

وأعقب ذلك أشد ما رايته في حياتي من أعمال الجرأة، لقد كان أصدقائي على مبعدة نحو ثلاثين ياردة منا، فنادى روبرت خادما، وطلب إليه أن يحضر جواده، وفيما كان يتهيأ لركوبه إذا انثنى وبسط إلي يده اليمنى، بينا كانت اليسرى مستقرة فوق جزامه.

وقال: لنتصافح!

فانحنيت، وفعلت ما كان يعلم أنني سأفعله – وضعت يدي خلف ظهري – وبأسرع من الفكر، اندفعت يده نحوي ولمع بريق خنجر صغير في الهواء، وأصابني في كتفي اليسرى، ولو لم أتحرك فجأة لوصل إلى قلبي، فصرخت وتراجعت بضع خطوات، ثم تهالكت في مقعدي والدم ينزف مني بغزارة وأما روبرت، فوثب فوق ظهر جواده وانطلق يعدو به كالسهم تتبعه صيحات وطلقات مسدسات رفاقي، وكانت الأخيرة كالأولى في فشلها.

ثم فقدت الرشد، كانت الدنيا ظلاما عندما أفقت ووجدت فريتز بجانبي، وكنت ضعيفا ولكن مرحا، وزاد مرحي عندما أنبأني فريتز أن الجرح لم يكن خطرا وأنه سيبرأ سريعا ثم أنهى إلى أن جوهان سقط في الفخ الذي نصبناه له وقبض عليه وأنه كان في المنزل في تلك اللحظة.

قال فريتز:

– ولكن ما يبدو غريبا أنه ليس متأسفا على وجوده هنا، ويظهر أنه يعتقد أن بلاك ميكل سيحاول أن يتخلص من جميع مساعديه – اللهم إلا الستة – حين ينفذ خطته، وقد دل ذلك على أن سجيننا لم يكن أحمق، وخطر لي أن مساعدته لنا – إذا استطعنا الحصول عليها – ستكون ثمينة.

فأمرت بإحضاره إلي في التو، فجاء به سابت، وكانت يبدو على جوهان الخوف وعدم الرغبة في الكلام لكن بعد حديث طويل –كان يبدو خلاله رجلا ضعيفا أكثر مما هو رجل شرير – وافق على أن يفضي إليها بما نريد أن نعرف بالطبع وعدناه بمكافآت جزيلة (وقد وفيتها جميعا بأمانة) حتى أنه يعيش الآن في رغد، على الرغم من أنه ينبغي ألا أبوح بمكانه وقد اتضح أنه إنما فعل ما فعل بدافع من خوفه من الدوق وأخيه مكس أكثر من أية رغبة في الإضرار بالملك، وعلى كل حال كان مولاه يثق به، ولذا كان يعرف شيئا كثيرا من خططهم.

قال لنا أن الملك مسجون في غرفة صغيرة في القلعة القديمة، وكان ثلاثة من الستة يقيمون على الدوام في الغرفة المجاورة للحراسة، ففي حالة هجوم على الغرفة الأولى (التي تفتح منها غرفة الملك) يدافع اثنان من الحرس عنها بينا يسرع الثالث، وهو روبرت أو ديتشارد، (لأن أحد هذين الاثنين يبقى هناك دائما) بالدخول إلى غرفة الملك وقتله، لأنه كان غير مسلح، وكانت يداه مغلولتين بسلاسل خفيفة من الصلب لتحول دون كثرة الحركة، وعلى ذلك يموت الملك قبل أن تسقط الغرفة الخارجية في أيدي المهاجمين.

فسألت إذا كانت جثة الملك هي أهم الأشياء التي لا يرغب ميكل في أن يراها أحد: وجثته؟، فأجاب جوهان: لقد تدبر سموه ذلك الأمر، إذ ثبتت في نافذة غرفة الملك فوهة أنبوبة واسعة – وهي تمنع الضوء من الدخول – وهذه الفوهة من الإتساع بحيث تكفي لمرور جثة رجل إلى أسفل، والأنبوبة تنحني إلى أسفل وتنتهي عند سطح الخندق فحين يموت الملك ستوضع جثته في الأنبوبة وقد ثقلت كي تغوص مباشرة إلى القاع، وعندئذ يهرب الحراس

– إذا استطاعوا – وذلك بالانزلاق في الأنبوبة إلى الماء، ثم يرتفعون ويسبحون بعيدا، ولكن الملك سيبقى في القاع إلى الأبد.

لم يقل جوهان قصة بمثل هذا الاختصار والوضوح، لكننا لم نظفر بها إلا بإلقاء الأسئلة، قلت: لنفرض أنه لم يكن هناك هجوم مسلح يقوم به عدد قليل من الرجال وإنما يقوم به جيش كامل لا يمكن مقاومته؟، فأجاب جوهان: لن تكون هناك مقاومة، فسيقتل الملك بهدوء في الحال وتوضع جثته في الأنبوبة، بينا أخذ أحد الستة مكانه في السجن ويدعي أن ميكل سجنه هناك، وسيفضي ميكل بالحقيقة وهي أن ذلك الرجل أغضبه، لكن إذا اعتذر فإنه يطلق سراحه.

فنظرنا – سابت وفريتز وأنا – بعضنا إلى بعض مأخوذين مصعوقين لهذه الخطة القاسية التي تدل على المكر والدهاء، فسواء ذهبت جهرا على رأس جيش أو سرا مع بضعة رجال فسيموت الملك قبل أن أستطيع الاقتراب منه، ويخيل أن ميكل جعل انتصاره ممكنا وفشله مستحيلا.

سألت: وهل يعرف الملك ذلك؟

– نعم يا سيدي، فعندما كنت أنا وأخي نضع الأنبوبة بأمر الدوق سأل الملك روبرت هنتسو عنها، فأجابه هذا بأنه سلم يعقوب، ولم يكن من الملائم لملك أن يذهب إلى السماء بالطريق العام على حد قول روبرت، آه يا سيدي، ليس من السهل أن ينام الإنسان بهدوء في قلعة زندا، فإنهم جميعا لا يتورعون عن قتل إنسان بسرعة كما لو كانوا يلعبون الورق.

قلت:

– حسنا يا جوهان، إذا سألك أي إنسان عما إذا كان هناك سجين في قلعة زندا فيمكنك أن تقول (نعم)، ولكن إذا سألوك من يكون، فلا تجب، وإذا عرفت حقيقة السجين فسأقتلك كالكلب،.

ولما انصرف نظرت إلى سابت وقلت:

– يخيل أن هناك طريقا أو اثنين لإنقاذ الملك، الأول حدوث خيانة في القلعة، والثاني معجزة من السماء.

الفصل التاسع

لقد كان مما يثير دهشة أهل روريتانيا أن يعرفوا حديثنا، لأني وفقا للتقارير الرسمية كنت قد جرحت مصادفة من ضربة أثناء اصطيادي الخنزير!، وقد عمدت إلى أن تبدوا النشرات في صيغ خطيرة جدا فأثارت بذلك هياجا شديدا بين الشعب، وكان غرضي من ذلك أن أجعل ميكل يعتقد حقا أنني جرحت جرحا خطيرا وليس في استطاعتي أن أعمل ضده، وقد علمت من جوهان أنه اعتقد ذلك فعلا ثم أنه نجمت عن ذلك نتيجتان أخريان، الأولى أنني أغضبت كبار أطباء سترلزو، لأنني رفضت أن أسمح لأحد منهم بالعناية بي، اللهم إلا شابًّا من أصدقاء فريتز، وثانيهما أنني تلقيت رسالة من الماريشال شتراكنتس مؤداها أن الأميرة فلافيا لم تعد تطيع أوامره أو أوامري بالبقاء في سترلزو،وأنها ستشخص إلى زندا في الحال.

إن وصول فلافيا، وابتهاجها برؤيتي صحيحا معافى بدلا من أن تراني مستلقيا على ظهري أناضل، يخلق صورة لا تزال حتى هذه اللحظة تتراقص أمام عيني حتى تتخضلا بالدموع ولا تعودا تبصرانها، وفي الواقع أن وجودها معي مرة أخرى كان كطعم الماء لمجرد مكوم عليه بالاعدام وقد ابتهجت لاستطاعتي أن أتذوق حلاوة رفقتها مدة يومين كاملين.

ثم كان أن قرر سابت وأنا – أن نغامر بمحاولة، فقد سمعنا من جوهان أن الملك آخذ في النحول، وقد أصيب بمرض من جراء السجن، فقد يموت الإنسان – سواء كان ملكا أم لم يكن – في سرعة من رصاصة أو طعنة، كما

يحدث تدريجا في سجن وقد جعل هذا الخاطر العمل السريع ضروريا لمصلحة الملك، وقد أصبح ذلك ضروريا من وجهة نظري أيضا، وذلك لأن الماريشال راح يحثني على إعداد العدة لزواجي، وأما مدى تأثير هذا الإلحاح في نفسي فيمكن تصوره إذ كلما أطلت بقائي على مقربة من الأميرة، زاد حبي لها، وبالتأكيد يزداد حبها أيضا لشخصي التافه.

وقد أخبرني سابت بعد ذلك بوقت طويل أن سلوكي في تلك الفترة كان كسلوك دكتاتور، فما كنت لأسمح بأي تدخل، أو أصغي لأية نصيحة لا تؤدي إلى العمل، ولم يكن في استطاعتي أن أرى شيئا مما يجعل الحياة حلوة بهيجة، ولذا أخذت حياتي على كفي، وحملتها بكل إهمال كما يحمل الرجل عصا قديمة.

ففي الليلة التالية لقرارنا، انطلقنا سرا – سابت وأنا ومعنا فريتز وستة رجال – وجميعنا راكبون جيادا، وقصدنا إلى قلعة زندا، وكان ثابت يحمل حبلا، وأنا عصا صغيرة ثقيلة، ومدية فدرنا حول المدينة، ثم استأنفنا سيرنا بحذر حتى صرنا على مبعدة ربع ميل من القلعة القديمة.

وكان الليل مظلما عاصفا، يناسب جدا الخطة التي كانت في رأسي، واختبأ الرجال الستة مع الجياد وراء بعض الأشجار، وكانت مع سابت صفارة لاستدعائهم عند الحاجة، ولم نقابل أحدًا، فلا ريب أن ميكل كان يعتقد أنني حقا مريض في الفراش، وقد بلغنا ثلاثتنا حافة الخندق أخيرا، فربط ثابت الحبل إلى شجرة بينا خلعت حذائي، ووضعت هراوتي بين أسناني والمدية في منطقتي، وبعد أن ودعت رفيقي برقة تدليت في الماء، إذ كنت أعتزم الذهاب لألقي نظرة على سلم يعقوب.

وسبحت ببطء وحذر بجانب الجدران العالية المقيمة، وكان هناك أنوار في القسم الحديث من القلعة في الناحية الأخرى، وسمعت ضحكات وصيحات مرحة، فلم تساورني الريبة في أن روبرت هنتسو كان يلهو بشرب الخمر، وظهر أمامي جسم أسود، كانت الأنبوبة، وكنت أقترب منها حين رأيت شيئا آخر وقفت له دقات قلبي، رأيت قاربا في الناحية الأخرى من الأنبوبة، ترى من هذا الذي يخفر اختراع ميكل؟، أكان مستيقظا أم نائما؟، وقد عثرت على رف ضيق من الأحجار لصق الجدران تحت الماء وكان جزءا من أسس القصر، فأمكنني أن أقف فوقه، ورأسي وكتفي فوق سطح الماء وزحفت بحذر حتى بلغت الأنبوبة، ومن ثم تلفت حولي حيث كانت هناك فرجة بينها وبين الجدار، وقد كان في القارب رجل، وكانت إلى جانبه بندقية ولكنه لم يتحرك، فأصغيت إلى تنفسه وكان ثقيلا، منتظما فأدركت أنه نائم فاستأنفت الزحف ما بين الأنبوبة والجدار، حتى صرت على قيد قدمين من وجهه، لقد كان رجلا كبير الجسم، كان مكس هولف أخاجوهان، فأخذت مديتي من منطقتي بهدوء، واقتربت منه قدر استطاعتي وتهيأت للطعن.

من كل الأعمال التي أتيتها في حياتي أكره دائما أن أفكر في هذا العمل بيد أنني قلت لنفسي:

"إنها حرب – وحياة الملك في خطر" ثم رفعت المدية، وأهويت بها ودفنتها في قلبه، وقد كان لديه وقت ليفتح عينيه وقد تجسم فيهما الذعر ولكن لحسن الحظ لم يكن لديه وقت للصراخ ثم خر صريعا في القارب فتركته حيث كان وتحولت إلى سلم يعقوب.

كان وقتي قصيرا، إذ كان من المحتمل أن يأتي حارس آخر ليحل محل مكس بعد وقت قليل، ففحصت الأنبوبة من جميع جوانبها، ولكني لم أوفق في العثور على أية فرجة أو فتحة ومهما يكن، كان هناك شعاع ضئيل من نور ينفذ من الناحية السفلى للإنبوبة عند التصاقها بالجدار، تغطيه النافذة ثم سمعت أصواتا!

كان ديشارد يخاطب الملك:

– هل تريد شيئا يا مولاي قبل أن أتركك الليلة؟

وأعقب ذلك صوت الملك، لكنه كان ضعيفا لا يشبه ذلك الصوت المرح الذي سمعته في الغاب ومنزل الصيد، قال الملك:

– أطلب إلى أخى أن يقتلني فإنني أموت هنا تدريجا.

فقال ديتشارد ساخرا:

– لا يرغب الدوق في موتك يا مولاي، بعد، وحين يريد، فهذا هو طريقك إلى السماء!

واختفى الضوء، وسمعت صوت الباب وهو يغلق بالمزلاج، وكان من الخطر أن أتحدث إلى الملك، فقد تبدر منه صيحة دهشة، ولذا تسلقت إلى القارب لأتخلص من جثة مكس، وكانت العاصفة تهب بقوة أكثر فأمكنني أن أجذف بسرعة ووصلت إلى الشجرة وإذ بلغتها، سمعت صوت صفارة صادرا من ناحية حافة الخندق التي خلفي وصاح شخصي:

– أهذا أنت يا مكس؟!

فقلت: أسرع يا سابت.

ثم ربطت الحبل حوله الجثة، ثم صعدت إلى الشاطئ، وبدأنا نجذب الجثة إليه.

وقلت: صفر لرجالنا، لا مجال للكلام الآن.

ففعل ثابت كما قلت، ولكن في اللحظة التالية أقبل في الطريق من القلعة ثلاثة رجال راكبين وقد رأيناهم، ولكن لما كنا راجلين فلم يكن في الإمكان رؤيتنا، وسمعنا رجالنا قادمين من الناحية الأخرى وهم يصيحون.

وقال شخص – وقد عرفت أن الصوت صوت روبرت –:

– إن الظلام دامس كالشيطان.

وفي اللحظة التالية دوت طلقات نارية، كان رجالنا قد التقوا بهم، فعدونا إلى الأمام لنشترك في القتال، وقد دلتنا الصيحات وصرخات الألم على أن شخصا واحدا على الأقل قد أصيب، وفجأة، أقبل نحوي جواد، فقفزت على رأسه، وكان القادم روبرت هنتسو.

فصحت: أخيرا!

كان يبدو أننا ظفرنا به، فلم يكن معه إلا حسام بيده، وكان رجالي في أثره مباشرة، بينا كان سابت وفريتز على مقربة فقد عدوت أسرع منهما.

صحت ثانية: أخيرا!

فهتف: إنه الممثل!

وضرب هراوتي بسيفه فشطرها إلى نصفين، فخيل إلي أنه ظفر بي تلك اللحظة، وثبت مبتعدا عن ضرباته، لقد كان الشيطان متقمصا في روبرت، إذ راح يستحث جواده إلى الأمام وانطلق به إلى الخندق رأسا، ثم وثب فيه، في حين كانت طلقات جماعتنا تتساقط من حوله ولكن الظلام كان دامسًا، فاتخذ منه ستارًا، وسبح بجواده إلى ركن جدار القلعة وهرب، سألت:

- ماذا حدث؟

فقال أحد رجالي: لقد قتل ولا نجرام وكرافشتين يا مولاي.

فقلت: ومكس أيضا، وبهذا يكون مجموعهم ثلاثة.

ولما كان من المستحيل إخفاء معالم المعركة، فقد قذفنا بالجثث إلى الخندق وعندئذ اكتشفنا أن ثلاثة من رجالي قتلوا أيضا، فحملنا جثثهم معنا إلى الدار، وقلوبنا مثقلة بالأحزان لمصرع أصدقائنا قلقين جدا من ناحية الملك، حانقين للنصر الثاني الذي حازه علينا الفتى روبرت.

وأما أنا، فقد كنت خجلا لأنني لم أقتل أي رجل في قتال مكشوف كما لم يروقني أن أسمع روبرت يدعوني "ممثلًا".

كان من المستحيل أن نبقي وفاة مثل هذا العدد من السادة طي الكتمان، ولذا أصدرت أوامر مشددة بتحريم المبارزات قطعيا في المستقبل، وكذلك أرسلت اعتذارا مفتوحا لميكل، فأرسل إلي واحدًا وكانت نقطة الاتفاق بيننا أن أحدا منا لم يكن في استطاعته أن يذيع الحقيقة على الآخر، ولكن من سوء حظي أن التزام السرية معناه التأخير، وقد يموت الملك في السجن أو حتى ينقل لمكان آخر في هذا الأثناء، وكانت إحدى النتائج

العجيبة، لضرورة مصادفتي لميكل أمام الملأ، أن أصبحت مدينة زندا بالنهار مكانا يمكن للفريقين أن يتقابلا فيه أمان، لكن لا ريب أن الأمر كان يختلف ليلًا، فذات يوم كنت راكبًا مع فلافيا وسابت عندما حدث لقاء لا يخلو من التفكه من ناحية ولكنه من ناحية أخرى كان مربكًا لي إذ هبط شخص مهيب الطلعة من مركبة وتقدم نحوي وكان القادم رئيس بوليس سترلزو.

قال: إننا نعني أشد العناية بأوامر جلالتكم بخصوص المبارزة.

فسألت: أهذا ما جاء بك إلى زندا؟

كنت قد صممت على يعود ثانية إلى سترلزو في الحال، فقد ينجلي وجوده عن متاعب.

– لا يا مولاي، إني هنا بناء على طلب السفير الانجليزي.

فسألت دون اكتراث، لكن بلهفة داخلية:

– وماذا يريد؟

– إن شابًّا من مواطنيه يا مولاي – رجلا من أصحاب الحيثية – قد فقد ولم يسمع عنه أصدقاؤه منذ شهرين، وهناك سبب يدعو إلى الاعتقاد أنه قد شوهد آخر مرة في زندا.

وكانت فلافيا غير مهتمة بالحديث، ولم أجرؤ على النظر إلى سانت.

– أي سبب؟

– لقد أخبرنا صديق له بباريس أنه من المحتمل أن الشاب جاء إلى هنا، ويقول موظفو السكة الحديد أنهم قرأوا اسمه على أمتعته.

– وماذا كان اسمه؟

– راسنديل يا مولاي.

ونظر إلى فلافيا ثم خفض صوته واستطرد: " المعتقد أنه جاء إلى هنا في أثر سيدة، هل سمعتم جلالتكم عن مدام دي موبان؟".

فقلت وقد اتجهت عيني إلى القلعة: نعم.

– لقد وصلت إلى روريتانيا حوالي الوقت الذي وصل فيه راسنديل هذا.

– هل هذا مجرد تكهن منك؟

فهمس:

– لنفرض أنه كان يحب السيد، ولم يسمع أحد عنه شيئا منذ شهرين؟.

وكان هو الذي نظر إلى القلعة هذه المرة.

فقلت بهدوء: نعم، إن السيدة هناك، ولكن لا أظن أن هذا السيد – راسنديل، ألم تقل أن هذا اسمه؟ – هناك أيضا.

– إن الدوق لا يحب المنافسين يا مولاي.

فقلت مكررًا: عد إلى سترلزو، وأخبر السفير أن لديك معلومات وأنك ستطلعه على نتيجة تحرياتك في مدى أسبوع.

– إن السفير متشدد جدا يا مولاي.

– يجب أن تهدئه، وفي هذه الأثناء سأنظر في الأمر بنفسي.

فوعد أن يطيعني ويرحل تلك الليلة، إذ كان يجب أن توقف التحريات عني مهما كلف ذلك مدة أسبوع أو اثنين، فقد كان هذا الموظف النابه قد اقترب من الحقيقة بشكل يدعو إلى الدهشة.

الفصل العاشر

بينما كنا نتحول لنركب عائدين إلى تارلنهايم، رأينا موكبًا آتيًا من قلعة زندا، وكان يسير في المقدمة خادمان راكبين يرتديان بزة رسمية، وخلفهما مركبة تحمل نعشا، ومن ورائها سار رجل في ثياب ملكية سوداء.

همس سابت: إنه روبرت.

فلما رآنا ترك الجماعة وتقدم نحونا وهو ينحني باحترام.

فسألت: من الميت يا سيدي؟

فأجاب بحزن، لكن لاحت على وجهة ابتسامة سريعة إذ رأى يد سابت في جيبه:

– إنه صديقي لاونجرام.

لقد خمن – وكان تخمينه صحيحا – إذ كان سابت يحمل مسدسا.

سألت فلافيا:

– هل قتل الرجل المسكين في المعركة؟

وقلت:

– سيدي، إن أحدًا لا يأسف على ما حدث أكثر مني.

فأجاب:

– إن أقوال جلالتكم تدل على العطف، وإني لآسف من أجل صديقي

ومع ذلك يا مولاي فإن آخرين يجب أن يرقدوا قريبًا كما يرقد هو الآن.

فقلت:

– هذا صحيح، يجب أن نتذكر ذلك جميعا.

فأردف روبرت بجرأة:

–حتى الملوك يا مولاي

ثم تحرك مبتعدا، فخطرت لي فكرة مفاجئة جعلتني أركض وراءه، فاستدار سريعا خشية أن أقصد به سوءا في حضرة الميت وأمام أعين سيده.

قلت:

– لقد حاربت كرجل باسل الليلة الماضية، اصغ إلي، إنك لم تزل شابا يا سيدي فإذا سلمتني أسيرك حيًّا فلن تصاب بأذى، وأقسم لك على ذلك.

فنظر إلي وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة وقال:

– اصغ إلي لقد رفضت هبة من بلاك ميكل فاستمع إلى واحدة مني.

ثم خفض صوته واستطرد: هاجم القيادة ببسالة ودع القيادة لسابت ونارلنهايم.

– استمر.. حدد الوقت معي.

– إن لي ثقة كبيرة فيك يا سيدي!

– صه. إني أتكلم عن الأعمال الآن، فيسقط سابت وفريتز ويسقط بلاك ميكل.

– ماذا؟

– سيسقط بلاك ميكل وهو كالكلب، ويذهب السجين – كما تدعوه – بطريق سلم يعقوب.

– آه، أنت تعلم ذلك !، ولن يبقى غير رجلين فقط، أنا روبرت أوف هنتسو، وأنت ملك روريتانيا.

وتوقف، ثم عاد فاستطرد بصوت مرتعش فيه رنة الهياج.

– أليست هذه خطة تستأهل المحاولة؟ لك عرش وأميرة! ولي منصب سام وتقدير جلالتكم.

فصحت:

– بالتأكيد، طالما أنت على قيد الحياة فليس للشيطان سيد.

– حسنا، فكر في الأمر، فإنه لكي أبتعد عن هذه الفتاة يلزمني شئ أكثر من أي شعور بالشرف.

– إذهب من طريقي!

ومع ذلك فإني بدأت أضحك بعد لحظة من جرأة هذا الشاب البالغة وسألته:

– هل تغدر بسيدك؟

فلعن ميكل وقال:

– إنه يقف في طريقي فهل تعرف ذلك؟، هو أحمق غيور، لقد كدت

أطعنه بسكين في الليلة الماضية كنت أطلع على أشياء جديدة، فسألت دون اكتراث:

– أمن أجل سيدة؟

– نعم، سيدة بارعة الجمال ولكنك قد رأيتها.

– آه! أكان ذلك في حفلة شاي عندما وفد بعض أصدقائك على جانب المنضدة الخطأ

– إنه ذلك الأحمق ديتشارد، لو أني كنت هناك فقط!

– وهل يتدخل الدوق بينكما؟

فضحك روبرت وقال:

– حسنا، أنا أتدخل ولو أن ذلك لا يرضي ميكل فإنها تفضله، ذلك المخلوق الأحمق.

– حسنا فكر في اقتراحي.

ثم انطلق مبتعدا لينضم إلى الموكب، وأما أنا فقد ركبت مع فلافيا عائدين إلى المنزل وأنا أعجب لخبث الرجال، فقد كان روبرت بالتأكيد أكثر الرجال الذين قابلتهم خبثا.

وإذ وصلنا إلى قلعة تارلنهايم سلمني غلام رقعة ففضضتها وقرأت: (لقد حذرتك مرة فاستحلفك بالله – إذ كنت رجلا – أن تنقذني من منزل السفاحين ا. دي. م) فناولت الرقعة لسابت، وكان كل ما قاله هو: ولكن خطأ من هو الذي أوقعها هناك؟، وعلى الرغم من أنني أحسست بالأسف

من أجلها فقد كان يبدو أنني عاجز عن مساعدتها كما تبين عجزي عن مساعدة الملك، ولم تلبث أن تطورت الأمور إلى ما هو أسوأ، فإلى جانب الخطر الذي كان يهددني من ناحية مباحث البوليس في أمر اختفائي برزت صعوبة أشد خطرا، فقد بدأ الشعب يتهامس في سترلزو حول غيابي عن المدينة، وجاء الماريشال شتراكنتس ووزير المال يطلبان أن أحدد يوما لخطوبتي، وهو احتفال يعتبر في روريتانيا وثيقا كحفل الزواج نفسه.

وكانت فلافيا تجلس بجانبي، ولذا فقد أرغمت على أن أحدد يوما بعد أسبوعين، وقد سبب ذلك سرورا عاما في المملكة، ولم يكن فيها غير رجلين تكدرا لهذا النبأ – أعني بلاك ميكل وأنا– كما كان رجل واحد يجهله – وهو الملك- وقد سمعنا من جوهان كيف تلقت قلعة زندا الأنباء، ولكننا سمعنا شيئا أهم بكثير، وذلك أن الملك كان مريضا جدا بل كان من شدة الضعف بحيث لم يكن يستطيع حراكا، وقد أرسلوا يستدعون طبيبا، وشد ما ذعر الطبيب لما رأى ولكن الدوق استبقاه أسيرا في الغرفة ذاتها كالملك، وكانت انطوانيت دي موبان تقوم على تمريض الرجل المريض إذ كان من الواضح جدا أن حياته في خطر، وأما أنا فكنت قويا صحيح الجسم – ومطلق السراج.

سألت جوهان: وكيف يحرسون الملك الآن؟

– يتولى ديتشارد وبرسونين الرقابة بالليل، وروبرت هنتسو ودي جوتيه بالنهار يا سيدي إذا استثينا أن الدوق لا يسمح مطلقا بأن يكون روبرت هنتسو هناك عندما تكون مدام دي موبان مع الملك يا سيدي، وتوسل إلينا

جوهان أن نستبقيه في تارلنهايم ولكننا نفحناه مالًا أكثر، وأقنعناه بأن يعود ويخبر أنطوانيت بأننا نفعل كل ما في استطاعتنا، وإذا أمكن فعليها أن تطمئن الملك ببضع كلمات إذ ليس أسوأ من اليأس على المريض.

وقد حصلنا على إيضاح دقيق من جوهان عن الأماكن التي ينام فيها الأشخاص المختلفون في القلعة، بالاثنان من الستة (الذين صاروا الآن أربعة) اللذان لم تكن عليهما نوبة حراسة الملك ينامان في غرفة فوق غرفة الملك، ويمكن الوصول إليها بواسطة بضع درجات داخل الباب الرئيسي مباشرة، وكانت لميكل غرفة في الطابق الأول من الجناح الجديد، وكذلك كانت لمدام دي موبان واحدة أيضا، وكان الدوق يغلق باب غرفتها بعد دخولها فيها – وقد فهمت السبب في ذلك بعد محادثتي مع روبرت – وأما القنطرة فكانت ترفع بالليل والمفتاح مع ميكل فقط فسألت جوهان:

– وأين تنام أنت؟

– في بهو القصر الخارجي في القلعة الجديدة، يا سيدي، مع خمسة آخرين من الخدم.

قلت:

– اصغ إلي، لقد وعدتك بمكافأة قدرها عشرون ألف كرون، ولكنك ستحصل على خمسين ألفا إذا فعلت ما سأقوله لك ليلة الغد، يجب أن تفتح الباب الخارجي في الساعة الثانية صباحًا تمامًا، قل إنك بحاجة إلى الهواء النقي أو قل ما شئت ولكن لا تتأخر لحظة واحدة.

- هل ستكون هناك يا سيدي؟

– لا تسل شيئا.. هذا كل ما أريد منك أن تفعله.

– وهل أهرب عندما أفتح الباب؟

– نعم، أطلق ساقيك للريح، بقي شئ واحد، خذ هذه الرسالة إلى مدام دي موبان وقل لها إن أرواحنا تتوقف على إتمام ما هو مذكور في الرسالة بالدقة.

كان الرجل يرتعش، ولكن كان على أن أثق فيما كان له من الشجاعة وفيما كان له من الإخلاص، ولم أكن أجرؤ على التريث فما دمت قد فشلت من ناحية سلم يعقوب فيجب أن أحاول الطريقة الأخرى.

واستدعيت سابت وفريتز، وشرحت خطتي، فهز سابت رأسه نفيا وسأل: لماذا لا تستطيع الانتظار؟

– قد يموت الملك.

– سيضطر ميكل إلى العمل قبل أن يحدث ذلك، إذ هل يتركك جالسا على العرش؟

– ليس هذا كل شئ، فلنفرض أن الملك قد عاش – لأسبوعين تاليين؟

عض سابت على شاربه بينما وضع فريتز يده على كاهلي وقال:

– إنك على حق يا رودلف، دعنا نذهب ونقوم بمحاولة.

وقال سابت:

– سيذهب فريتز وأنا، فإذا فشلنا وقتل ميكل الملك ونحن أيضا، فستكون على قيد الحياة وتحكم.

فقلت:

– لا، لقد كنت مخادعا من أجل شخص آخر ولكني لن أكون كذلك من أجل منفعتي الخاصة، إذا لم يكن الملك حيًّا يوم الخطوبة فسأذيع الحقيقة على الملأ مهما يحدث.

فقال سابت:

– ستذهب يا فتى.

وكان تلك هي خطتي.

كان على جماعة كبيرة بقيادة سابت أن تتسلل إلى باب القصر الجديد، فإذا قابلوا أحدا في الطريق فعليهم أن يقتلوه بالسيوف إذا أمكن لتجنب الضوضاء، وعندما يفتح جوهان الباب كان عليهم أن يندفعوا إلى الداخل ويقبضوا على الخدم، وفي الوقت ذاته – وكانت الخطة كلها تتوقف على هذا – تدوي صيحة امرأة عالية وواضحة من غرفة انطوانيت دي موبان، وكان عليها أن تعاود الصباح مرة بعد أخرى (المعونة ! إنه روبرت هنتسو) فيهرع ميكل، كما كنا نؤمل، من غرفته القريبة فيقع في أيدي سابت ورجاله، ولكن لا تزال الصيحات المستمرة، وإذ يستولى رجالي على المفتاح من ميكل ينزلون القنطرة، وسيكون أمرا عجيبا ولا ريب إذا سمع روبرت اسمه يستعمل زيفا ولا يهبط من غرفته ويعبر القنطرة ليرى ما الأمر، وقد يأتي معه دي جوتيه أو لا يأتي يجب أن نترك هذا للصدف.

وعندما يكون روبرت فوق القنطرة، هنا يبدأ دوري، كنت سأسبح مرة أخرى في الخندق واختبئ بجانب القنطرة فإذا ما أقبل روبرت – ودي جوتيه إذا

جاء أيضا – فسأقتلهما في الظلام، وعندئذ لا يبقى أمامنا إلا رجلان وكان يجب أن نستولي على المفاتيح ولذا كان يتعين علينا أن نندفع إلى الغرفة التي بها ديتشارد وبرسونين، وكنا نؤمل – وسط البرج العام – إنهما يدافعان عن نفسيهما بدلا من إطاعة أوامرهما بقتل الملك أولا، ثم إنه كانت هناك فرصة أخرى تلك أنه حين يسمع حارسا الملك المعرفة المفتعلة بين ميكل وروبرت يترك ديتشارد برسونين فقط لحراسة الملك، ثم يعبر هو القنطرة لمساعدة ميكل.

تلك كانت الخطة، وكان اليأس فقط هو الذي دفعنا إلى اتباعها، ولكي نخفي استعداداتنا إلى حد ما طلبت إضاءة قلعة تارلنهايم كلها كما لو كنا نرقص ونمرح، وأمرت الماريشال شتراكنتس إذا لم نعد عند الصباح – أن ينطلق جهرا إلى قلعة زندا ويطلب مقابلة الملك، فإذا لم يره فعليه أن يأخذ فلافيا معه إلى سترلزو في الحال وينادي بها ملكة، ويعلن المملكة أن بلاك ميكل قد قتل الملك.

أقول الحق أن هذا هو ما كنت أعتقد أنه الشئ المحتمل وقوعه إذا لم يكن في اعتقادي أنه بقي لميكل أو للملك أو لي أنا أكثر من يوم آخر نبقاه على قيد الحياة، كان الوقت متأخرا عندما انتهينا من عمل ترتيباتنا، فذهبت لأقرئ فلافيا تحية المساء ونزعت خاتما كان في أصبعي – هو خاتم عائلي– وأعطيته لها وأنا أقول:

– إلبسي هذا الخاتم حتى ولو لبست غيره عندما تكونين ملكه.

فقالت وهي تقبل الخاتم:

– مهما لبست فسألبس هذا حتى أموت.. وكانت الدموع تترقرق في عينيها وعيني.

الفصل الحادي عشر

كان الليل ساحرًا صحوًا، وكنت آمل في طقس رديء كذلك الذي كان عند رحلتي الأولى ولكنه لم يكن كذلك، ولكن مهما يكن، فقد خيل إلي أني لو بقيت بأسفل جدار القلعة القديمة مباشرة لما أمكنت رؤيتي من نوافذ البناء الجديد عبر الفندق، ربما فتشوا الخندق ولكن هذا بعيد الاحتمال، فقد أخبرني جوهان أن سلم يعقوب قد عزز (قوى) بحيث لا يمكن تحريكه وحتى إذا لم يكن جوهان مخلصا لنا فإنه لم يعرف خطتي، ولذا فسيتوقع أن يراني مع رفاقي أمام الباب عندما يفتحه في الساعة الثانية.

وعند منتصف الليل، غادرت جماعة سابت قصر تارلنهايم وانطلقت في طرقات مهجورة وعبر الغابات في طريقها إلى قلعة زندا، فلو جرى كل شئ على ما يرام فإنهم سيكونون عند الباب الخارجي الساعة الثانية إلا ربعًا، فإذا لم أتمكن من مقابلته كان عليهم أن يعودوا إلى تارلنهايم، ويجمعوا أكبر قوة ممكنة، ويهاجموا القلعة.. لأنه إذا لم أكن هناك لمقابلة فريتز فمعنى ذلك أنني مت، ومعناه أيضا أن الملك قتل بعدي بلحظات قلائل.

انطلقت وحيدًا، وكنت أرتدي ثيابا ثقيلة، إذ لم تكن هناك حاجة لأن أصبح من البرودة في ماء الخندق بحيث لا أستطيع أن أقوم بدوري على خير وجه، وقد أخذت معي حبلا خفيفا، وسلما صغيرا من الحرير يساعدني على الخروج من الخندق وسلكت طريقا أقصر من طريق الآخرين، وحوالي الساعة

الثانية عشرة والنصف ترجلت عن جوادي وربطته إلى شجرة بعيدا عن الأنظار، ثم انطلقت إلى الخندق.

وربطت الحبل إلى جذع شجرة ثم تدليت في الماء وعندما بدأت أسبح ببطء سمعت ساعة القلعة تدق الواحدة إلا ربعًا، وبعد بضع دقائق وصلت إلى سلم يعقوب، فانتظرت في ظله، وعلى مبعدة عشر ياردات أمكنني أن أرى القلعة! وكانت لا تزال في مكانها، كما أمكنني أن أرى – في الناحية الأخرى من الخندق– نوافذ غرف الدوق ومدام دي موبان، لو كان ما قرره جوهان صحيحا.

وفجأة، سطع النور في نافذة غرفة الدوق، وكانت مفتوحة ثم أطلت انطوانيت بنفسها، فأردت أن أصيح بكلمة "تذكري!" ولكنني لم أجرؤ على ذلك، وبعد لحظة جاء رجل ووقف بجانبها فوثبت مبتعدة عنه وعندئذ سمعت ضحكة خافتة، دلتني على أنه كان روبرت! وبعد لحظة أخرى رأيته كان يهمس لأنطوانيت.

فغمغمت:

– رفقا.. رفقا ! لقد بكرت يا بني!

وتقدم روبرت من النافذة ثم أطل إلى الخارج وسمعته يقول:

– فليشنق بلاك ميكل، ألا تكفيه الأميرة؟ أيريد أن يستحوذ على كل شئ؟ ماذا بحق الشيطان ترين في بلاك ميكل؟

فقالت:

– لو أني أخبرته بما تقول.

فقال روبرت بغير اكتراث:

– حسنا، أخبريه، ووثب فجأة إلى الأمام وقبلها ثم ضحك وصاح، هاك شيئا لتخبريه به.

فرفعت المرأة التعسة يديها فوق رأسها في ضراعة أو في يأس، واستطرد روبرت:

– هل تعلمين بماذا وعدني إذا قتلت الممثل؟ سيأخذ هو الأميرة وسآخذك أنا، لكني لا أريد الانتظار.. وهذا كل ما في الأمر.

سمعت صوت باب يفتح، وأعقبه صوت بلاك ميكل يقول:

– ماذا تفعل هنا يا سيدي؟

ثم تقدم من النافذة وأمسك روبرت من ذراعه.

قال بلاك ميكل بغضب:

– إن الخندق يتسع لأكثر من الملك.

فسأل روبرت بشجاعة:

– هل سموك تهددني؟

فأجاب ميكل:

– إن التهديد تحذير أقوى مما يظفر به مني أغلب الناس.

– ومع ذلك، فإن رودلف راسنديل قد هدد كثيرا ولكنه لا يزال على قيد الحياة.

– وهل الخطأ خطئي لأن خدمي يرتكبون أخطاء تدل على الغباوة.

فقال روبرت ساخرا:

– إن سموك لم تجازف بعد بالوقوع في الخطأ.

لقد كان يخير الدوق أنه جبان بصراحة لم أسمعها من رجل وكان بلاك ميكل رجلا كظومًا، وعندما تكلم كان صوته في منتهى الهدوء: كفي، يجب ألا نتشاجر يا وروبرت، هل ديتشارد وبرسونين في مركزيهما؟

– إنهما في مركزيهما يا سيدي.

– لم تعد لي بك حاجة.

فقال روبرت:

– أوه، إني لم اتعب.

– سيدي أرجوك أن تتركنا، فسترفع القنطرة بعد عشر دقائق ولا أظنك تريد أن تسبح عائدا إلى فراشك.

واختفى شبح روبرت، وسمعت الباب يفتح ثم يغلق، ولم أعد أرى ميكل وانطوانيت، ثم سمعت صوت روبرت عند نهاية القنطرة: دي جوتيه، هلم، اللهم إلا إذا كنت ترغب في حمام قبل أن تذهب إلى فراشك، وبعد برهة عبر الرجلان القنطرة، وبعد أن عبراها مباشرة، رفعت القنطرة، ثم دقت الساعة الواحدة والربع.

وأظن أنه مضت حوالي عشر دقائق عندما سمعت ضوضاء خفيفة بالقرب مني بعيدا عن الأنبوبة ولكم دهشت عندما رأيت روبرت عند مدخل باب القلعة القديمة، وقد أقبل نحوي ثم هبط بضع درجات منحوته في الجدار – لم أكن قد رأيتها من قبل – وكان في يده حسام وضعه بين أسنانه فلو أن المسألة كانت مسألة حياتي فقط لسبحت لمقابلته،. فكم كنت أود أن أصفي حسابي معه في تلك اللحظة؟ وفي ذلك المكان! ولكني منعت نفسي فقد كنت هناك لأنقذ حياة الملك.

سبح في هدوء وسهولة عبر الخندق، ثم تسلق على مقربة من بوابة القصر الجديد، وسمعته وهو يفتح البوابة، ثم اختفى في الداخل، وكان من الواضح أن هناك خططا أخرى مثل خطتي تنفذ في القلعة تلك الليلة، وفي الحال خطر ببالي أنه مهما تكن الفعلة الشريرة التي يسعى روبرت لأتمامها فإن وجوده خارج القلعة كان ذا فائدة عظمى لي إذ تركت لي ثلاثا رجال أتكفل بأمرهم آه! لو كانت معي المفاتيح!

وكان الضوء لا يزال ينبعث من نافذة أنطوانيت ولكن غرفة ميكل كانت مظلمة، ولا ريب أنه كان قد نام في تلك الآونة ثم سمعت صوت باب يفتح من الناحية الأخرى للخندق، وكان الباب يفتح ببطء وهدوء، وفيما كنت أعجب فيمن عساه يكون إذ جاءني الجواب، فقبل أن يتسنى لأصدقائي الاقتراب من باب القصر الجديد الرئيسي – وقبل أن يفكر جوهان في الاقتراب منه – سمعت قرقعة مفاجئة في غرفة انطوانيت وقد بدا كأن شخصا قذف بمصباح إلى الأرض وفي اللحظة ذاتها سبحت الغرفة في الظلام، وعقب ذلك دوت صرخة عالية في ظلام الليل، "المعونة المعونة ميكل المعونة!

وعلى الرغم من أنني استولى علي الجنون لعجزي عمل عمل شئ، فإنني ارتقيت الدرج الحجري ووقفت في مدخل بوابة القلعة القديمة، فعلى أي حال لم يكن أحد يستطيع الدخول أو الخروج دون مقابلتي، وصرخت انطوانيت صرخة أخرى، وعندئذ فتح باب غرفة ميكل، ثم سمعت صوت الدوق وهو يصيح: "افتحوا الباب! بحق الله، ما الأمر؟" وأعقب ذلك صوت مقبض باب يدار بوحشية، فأجابته الكلمات نفسها التي كنت قد كتبتها في رسالتي: "المعونة يا ميكل! روبرت هنتسو!، فسمعت صوت الباب وهو يفتح عنوة، ثم قعقعة سيوف، وفي الوقت ذاته، فتحت نافذة فوق رأسي، وصاح صوت دي جوتيه: "ماذا حدث؟"، لقد حدث كل شئ بمنتهى السرعة حتى يستحيل أن أذكر ما حدث بإيضاح إذ كان يبدو أن كل الأشياء حدثت في وقت واحد فتحت نافذة غرفة انطوانيت، وسمعت صرخة رجل جريح، ثم ظهر روبرت وظهره إلى النافذة وكان يقاتل بشدة:

- آه.. جوهان.. ها طعنة لك! تقدم يا ميكل!

إذن فقد كان جوهان هناك، إنه جاء لنجدة الدوق! فكيف يمكنه أن يفتح الباب الخارجي.

وصاح الدوق بصوت ضعيف خائر: المعونة!، وسمعت وقع أقدام على الدرج خلفي، ولكن قبل أن يخرج أحد، رأيت روبرت وحوله خمسة أو ستة رجال.

وفجأة، وثب إلى النافذة، وظل هناك لحظة، وكان يضحك كالمجنون الذي ثمل من الدم، ثم قذف بنفسه في الخندق وفي اللحظة ذاتها ظهر وجه

دي جوتيه من خلال الباب المجاور لي، فضربته بكل قواي، فسقط صريعا عند مدخل الباب، وبوحشية وسرعة فتشته بحثا عن المفاتيح، وأخيرا حصلت عليها، وكانت ثلاثة فقط، فجربت أحدها في الباب المؤدي إلى غرفة الملك، وكانت إلى اليمين.

وفتحت الباب بكل ما أمكنني من هدوء، ومررت منه ثم أعدت إلاقه خلفي وكانت أمامي بضع درجات رأيتها على ضوء مصباح زيتي معلق في الجدار، فأخذت المصباح، وأنصت وسمعت صوتا يقول صاحبه:

– ترى ما هذا؟

وكان الصوت صادرا من وراء الباب الموجه لي عند أسفل الدرج.

وأجابه صوت آخر:

– هل نقتله؟

وأعقبت ذلك فترة سكون، كانت أليمة بالنسبة إلي، ثم قال ديتشارد:

– انتظر هنيهة، سيستفحل الأمر لو أننا فعلنا ذلك قبل الأوان.

وسمعت الباب يفتح في اللحظة التالية، فاطفأت المصباح، وأعدته إلى موضعه فوق الجدار وقال برسونين:

– إن الظلام دامس، فقد انطفأ المصباح، أعطني هذا.

لقد حلت الأزمة الآن.

اندفعت أهبط الدرج، ثم ألقيت بنفسي فوق الباب، ففتح وكان برسونين واقفا هناك وحسامه في يده، وأما ديتشارد فكان جالسا فوق أريكة، فتراجع برسونين خطوة أو اثنتين وقد أدهشته رؤيتي، وأما ديتشارد فقد وثب نحو حسامه، فاندفعت بجنون نحو البلجيكي، ودفعت به إلى الجدار، وكان الرجل شجاعًا ولكنه لم يكن رجل سيف، فما هي إلا هنيهة حتى كان ممددا أمامي فوق الأرض، فتحولت إلى ديتشارد ولكني لم اجد له أثرا، ذلك أنه أخلص للأوامر، فلم يغامر بقتال معي، وإنما اندفع إلى الغرفة الداخلية مباشرة، وأغلق الباب خلفه بالرتاج، وحتى الآن كان يقوم بعمله في الداخل.

وبكل تأكيد كان يقتل الملك، وربما يقتلني أيضا لولا رجل مخلص جاد بحياته في سبيل الملك إذ عندما اقتحمت الباب كان هذا هو المنظر الذي وقع عليه بصري، كان الملك واقفا في ركن الغرفة وقد أنهكه المرض، فلم يستطع أن يفعل شيئا غير تحريك يديه المقيدتين دون جدوى إلى أعلا وأسفل بل وكان يضحك كرجل على وشك الجنون، وكان ديتشارد والطبيب في منتصف الغرفة، وقد رمى الطبيب بنفسه على القاتل واستطاع أن يقيد يدي ديتشارد إلى جانبيه لحظة، إلا أن ديتشارد استطاع أن يتحرر من غريمه، وفيما كنت أدخل الغرفة دفن سيفه في الرجل التعس.

ثم تحول إلي وصاح:

– أخيرًا.

وكنا سيفا لسيف، ولحسن الحظ لم يكن هو ولا برسونين يحملان مسدسيهما، وقد عثرت عليهما فيما بعد موضوعين فوق رف بالقرب من

الباب إذ كان اندفاعي الفجائي إلى الغرفة قد حال بينهما والوصول إليهما، نعم، كنا رجلا لرجل، وبدأنا نتقاتل بهدوء وعنف، كان لاعب سيف أمهر مني، وقد اضطرني ببطء إلى التقهقر نحو الجدار، وقد رأيت ابتسامة على وجهه، ثم جرحني في ذراعي اليسرى.

ولا مفخرة لي في كسب المعركة فقد كان أحسن لاعب سيف قابلته، ومن المؤكد أنه كان يقتلني، ثم يقوم بإتمام عمله الجنائي لو اننا كنا وحيدين، ولكن حدث عندئذ إن الملك – رغم أنه كان ضعيفا ونصف مجنون – بدأ يثب إلى أعلى وأسفل وهو يصيح: إنه الأخ رودلف ! سأساعدك أيها الأخ رودلف!، ثم التقط مقعدًا وتقدم نحونا فصحت:

– تقدم! تقدم! ادفعه تحت ساقيه

فضحك الملك، وتقدم إلى الأمام، وهو يحمل المقعد أمامه وثب ديتشارد إلى الخلف وهو يصيح بغضب، وقبل أن أعرف ماذا كان يفعل حول سيفه إلى الملك، وطعنه طعنة واحدة قاسية، فصرخ الملك، وسقط فوق الأرض، بينما انقض ديتشارد علي ثانية، ولكن جنت على نفسها براقش؛ ذلك لأنه حين تحول إلى خطأ في الدماء التي كانت تتدفق من الطبيب الميت، فانزلقت قدمه، وسقط وقبل أن يتمكن من النهوض أطبقت عليه، ودفنت سن حسامي في عنقه، فسقط في كومة معترضا جثة الطبيب المخلص.

أكان الملك ميتا؟ كان ذلك أول ما فكرت فيه فاندفعت إلى حيث كان ممددا، وحاولت أن أستمع إلى ضربات قلبه، ولكني سمعت في تلك الأثناء صوتا جعلني أنبعث واقفا على قدمي في لحظة كان صوت القنطرة

وهي تخفض، سأمسك كجرذ في فخ أنا والملك معي لو أنه كان على قيد الحياة، يجب أن ينال حظه الآن.

وفيما كنت أخطو إلى الغرفة الخارجية، وقع بصري على المسدسات فأخذت واحدا، ثم توقفت لأصغي عند باب الغرفة الخارجية، منذ الذي كان يخفض القنطرة؟، أصدقائي؟ لقد كنت أعطي الدنيا بأسرها لأسمع صوت سابت، ووقفت هناك وأنا أحاول أن ألتقط أنفاسي، وعصبت جرحي بقطعة من قميصي.

وخطر لي أنه في استطاعتي أن أدافع عن الباب الضيق الذي عند قمة الدرج أحسن من دفاعي عن هذا الباب فجررت نفسي فوق الدرج ووقفت خلفه أصغي.

ثم ارتفع صوت عجيب – عجيب بالنسبة إلى الزمان والمكان – كانت ضحكة سهلة ساخرة، ضحكة روبرت أوف هنتسو!، ولم أكن أستطيع أن أعتقد أن أي رجل عاقل يمكنه أن يضحك في ذلك الوقت العصيب، ولكن تلك الضحكة دلتني على أن رجالي لم يأتوا بعد، وإلا لقتلوا روبرت قبل الآن، ثم دقت الساعة الثانية والنصف! يا إلهي! إن الباب لم يفتح! لقد ذهبوا إلى المكان الذي كان ينبغي أن أقابل فريتز فيه، ولكنهم لم يجدوني هناك! فاعتقدت أنهم عادوا ثانية إلى تارلنهايم وهم يحملون نبأ موت الملك وموتي.

الفصل الثاني عشر

هويت أمام الباب يائسا لحظة أو اثنين ولكنني لم ألبث أن انبعثت واقفا ثانية، إذ سمعت روبرت وهو يصيح بسخرية:

– حسنا.. إن القنطرة هناك! فاعبروها! دعونا نرى بلاك ميكل! تقهقروا إلى الوراء أيها الكلاب! تعال يا ميكل وقاتل من أجلها!.

أدركت أنه قد يكون في استطاعتي أن أفعل شيئا لو نشبت معركة، ولذا أدرت المفتاح في الباب الرئيسي ونظرت إلى الخارج، كان المنظر غريبا، ففي النهاية البعيدة من القنطرة كان هناك جماعة من خدم الدوق، بعضهم يحمل أنوارا، والبعض الآخر أسلحة من الصلب من الطراز القديم، وكانوا جميعا من شاحبي الوجوه، ينتفضون من الخوف، وفي الواقع كان ذعرهم راجعا إلى وقوف روبرت في منتصف القنطرة وسيفه مسلول في يده، وفي المؤخرة رأيت جوهان يضع منديلا فوق جرح في وجهه ولكنهم جميعا لم يجرأوا على التقدم.

لقد كنت سيد الموقف بدافع الصدفة المدهشة، فإن الجبناء لم يكونوا ليقاوموني أكثر من جرأتهم على مهاجمة روبرت، فلم يكن على إلا أن أرفع مسدسي وأرديه قتيلا، إذ أنه لم يكن يعلم أنني هناك، ولكنني لم أفعل شيئا – ولماذا؟ لست أعرف حتى اليوم، لقد قتلت رجلا من الخلف تلك الليلة، وآخر يفعل الحظ أكثر من المهارة – فربما كان ذلك هو ما منعني عنه، ثم أنه وإن كان الرجل شريرا إلا أنني لم أرد أن أكون واحدا من رهط ضده وربما كان ذلك ما منعني عنه أيضا، ولكن سيطر على شعور بالفضول أقوى من

كلا الشعورين، وقد جعلني هذا الشعور أتوق إلى رؤية ما سيحدث.

صاح روبرت:

- ميكل، أيها الكلب! إذا كان في استطاعتك الوقوف فتقدم!

وجاء الجواب على ذلك في صرخة امرأة داوية.

- لقد مات! يا إلهي، لقد مات.

فصاح روبرت:

- مات! لقد طعنت خيرا مما حسبت.

وضحك ضحكة الانتصار. ثم استطرد:

- اخفضوا أسلحتكم يا هؤلاء! إنني سيدكم الآن، أقول اخفضوها!

وأعتقد إنهم كانوا يطيعونه، ولكن فيما كان يتكلم طرأت حوادث جديدة، أولًا ارتفعت صيحات بعيدة، وأصوات ارتطام من الناحية الأخرى من القصر الجديد، فوثب قلبي من الفرح، إذ لابد أن يكون رجالي جاءوا - وقد عضو أوامري لحسن الحظ - ليبحثوا عني، واستمرت الضوضاء، ولكن ما من أحد ألقي إليها باله، إذ اندفعت انطوانيت نفسها في تلك اللحظة من بين الخدم ثم تقدمت فوق القنطرة، وكانت ترتدي ثوبا ليليا أبيض فضفاضا، وشعرها الأسود مرسل فوق كتفها، وأما وجهها وكان شاحبا كوجوه الموتى، بينما كانت عيناها تلمعان بوحشية وكانت تحمل في يدها المرتجفة مسدسا رفعته ثم أطلقت النار على روبرت، ولكن الطلق اخطأه وأصاب الباب الخشبي فوق رأسه.

فضحك روبرت وقال:

– يقينا يا سيدتي، لو لم تكن عيناك أشد خطورة من طلقاتك، لما كنت في هذا الموقف – ولما مات بلاك ميكل – الليلة !

فحاولت أن تهدئ من ثائرة نفسها وسددت مسدسها إليه في عزم وكان من الجنون أن يخاطر بحياته، ولقد خطر لي أنه سيعدو ناحيتي، فسددت إليه مسدسي.

على العموم، لقد صاح روبرت قائلا:

– لا يمكنني أن أقتل حيث قبلت.

ثم وثب فوق حاجز القنطرة، ومنه إلى الخندق، وفي اللحظة التالية سمعت وقع أقدام وصوتا كنت أعرفه – صوت سابت – وهو يصيح:

– يا إلهي! إنه الدوق قتيل.

وعندئذ وثبت مثل روبرت – وفي أثره – إلى الخندق، ورأيته على مبعدة خمس عشرة ياردة أمامي. وكان يسبح بسهولة وقوة، وأما أنا فكنت متعبا جريحا. فلم أستطع السباحة بمثل سرعته، فلما وصلنا إلى ركن جدار القلعة ناديته: قف يا روبرت قف! فرأيته ينظر من فوق كتفه، ولكنه لم يتوقف، بل ولم يعرفني في الظلام، ولم تكن هناك وسيلة للخروج من الخندق اللهم إلا باستعمال الحبل الذي كنت قد ربطته إلى الشجرة، وقد يعثر عليه روبرت، وقد لا يعثر.

وسرعان ما عرفت الحقيقة إذ سمعته يصيح:

- كيف بحق الشيطان وجد هذا هنا؟

ثم أمسك بالحبل وجذب نفسه إلى أعلى حتى بلغ حافة الخندق، وكنت قد وصلت في تلك اللحظة فرآني، وعندئذ صاح في دهشة:

- هالوا! من هنا؟ كيف ذلك؟ إنه الممثل كيف جئت إلى هنا يا رجل؟

فأمسكت بالحبل، ولكني توقفت، إذ كان واقفا فوق الشاطئ، وحسامه في يده، فكان في استطاعته أن يشج رأسي وأنا أصعد.

قلت: لا بأس، لكن أما وأنا هنا فإني أعتقد إني سأبقى.

فابتسم وهو يطل على وأنشأ يقول: أولئك النساء.

وفجأة بدأ ناقوس القلعة الكبير يدق عاليا، وبلغت مسامعنا صيحة عالية من الخندق، فلوح روبرت إلي بيده وقال: -إني أتوق إلى مقابلتك ولكن الموقف حرج بعض الشئ.

ثم انصرف وفي لحظة كنت أتسلق الحبل، ووقفت على الشاطئ، فرأيته على مبعدة ثلاثين ياردة وهو يبدو كالغزال ليتخذ من الغاب مأوى ولأول مرة فضل روبرت الحكمة على الشجاعة فاندفعت في أثره وأنا أناديه ليقف، ولكنه لم يفعل ولما لم يكن جريحا، ويتمتع بكل قوته، فقد كان يبتعد عني أكثر فأكثر في كل خطوة، ولكني كنت قد نسيت كل شئ في الدنيا عداه وعدا تعطشي إلى دمه، فاندفعت في أثره، ولم نلبث أن ابتلعتنا نحن الاثنين ظلال غابات زندا الكثيفة، المطارد والمطارد.

وكانت الساعة الثالثة الآن، وبدأ نور النهار في الانبثاق وكنت في طريق

مستقيم مغطى بالحشائش وكان روبرت يعدو أمامي على مبعدة مائة ياردة، وأطل من فوق كتفه ولوح بيده ساخرا إذ رأى أنني غير قادر على القبض عليه، وبعد لحظات غاب من ناظري فظننت أن كل شئ قد انتهى وتهالكت فوق الأرض منهوكا، ولكنني لم ألبث أن سمعت صرخة تدوي في أنحاء الغاب – صرخة امرأة– فبذلت آخر قواي، وعدوت فرأيته ثانية،كان على وشك أن ينزل فتاة من فوق صهوة جوادها، وقد كانت صيحتها هي التي صافحت مسمعي وأما الفتاة فقد كانت ابنة فلاح – على ما اعتقدت – في طريقها إلى سوق زندا،وقد عاملها برفق،فقبلها وأعطاها بعض المال، ولكنه لم ينصرف من فوره وإنما انتظرني.

سأل وأنا أقترب منه:

– ماذا فعلت في القلعة؟

فقلت: قتلت ثلاثة من أصدقائك؟

– ماذا؟ هل وصلت إلى غرفة الملك؟

– نعم، وأضرع إلى الله أن يكون على قيد الحياة، لقد قتلت ديتشارد.

فقال يمزح:

– أيها الأحمق!

– لقد فعلت شيئا آخر، عفوت عنك، إذ كنت خلفك فوق القنطرة وفي يدي مسدس.

– إذن فقد كنت بين نارين!

فقلت:

– ترجل عن جوادك وقاتل كرجل.

فقلت ساخرا:

– ماذا؟ أقاتل أمام سيدة.

وفي ثورة غضبي – وبدون أن أعرف ما كنت فاعلا – حملت عليه فتردد.

وعندئذ ضربته بسيفي، ووصلت إلى وجهه، وقد أدهشته وحشيتي ولكن قبل أن يرتد إلي ويجهز علي، سمعت صيحة من خلفي، ورأيت رجلا يركب جوادا آتيًا من منعطف الطريق كان فرينز فوق تارلنهايم وكان يركب في سرعة ملحة، فأدرك روبرت أن الدور قد انتهى.

فصاح: – إلى اللقاء يا راسنديل.

وبوجه يقطر دماء انحنى لي، ثم انطلق بأقصى سرعة، فأطلق فريتز النار عليه فأصابت الرصاصة سيفه، فسقط فوق الأرض، ثم لم يلبث أن أبتعد وأنا أراقبه، وكان يضحك وذات مرة تحول ليلوح إلينا بيده، وهكذا اختفى – غير مكترث ولكن حذرا – رشيقا وأثيما جميلا ولكن شريرا، شيطانا ولكن غير مقهور.

ألقيت سيفي فوق الأرض، وصحت بفريتز أن يطارده ولكن فريتز أوقف جواده ووثب من فوقه، وأقبل نحوي عدوا، وحقا كان ذلك في الوقت المناسب إذ أن الجرح الذي أحدثه بي ديتشارد كان ينزف ثانية.

صحت وأنا أحاول الوقوف:

– إذن أعطني الجواد.

وتهاويت فوق الأرض، فركع فريتز بجانبي.

قلت: فريتز.

فأجاب بصوت حنون كالمرأة: نعم أيها الصديق.

– أما زال الملك على قيد الحياة؟

فأخذ منديله، ومسح به شفتي، ثم قال برفق:

– شكرا لأشجع رجل على ظهر البسيطة، إن الملك على قيد الحياة.

وكانت الفلاحة الصغيرة تقف بجانبنا وهي تبكي من الذعر والدهشة فحاولت أن أقول "وافرحتاه"! ولكني لم أستطع ولما كنت متعبا ومقرورا فقد أسندت رأسي إلى ذراعي فريتز ثم نمت.

* * *

علمت فيما بعد القصة الكاملة لما حدث تلك الليلة في قلعة زندا، فأنبأني انطوانيت كيف كانت هناك مشاحنات بين روبرت وميكل بخصوصها من قبل، وكانت المشاحنة الأخيرة واحدة من كثيرات، وكان ذهاب روبرت إلى غرفتها، عندما عرف أن ميكل غادرها، قد أرغمها علي أن تصرخ في طلب النجدة قبل الموعد المحدد، ففي أول الأمر خيل كان هذا التطور قد أضاع جميع مالنا، لكنه ساعدنا، كما حدث تقاتل روبرت وميكل، ولكن روبرت نفذ من النافذة دون أن يعرف أنه قتل سيده، أما عن سابت وفريتز

فإنهما انتظرا حتى الساعة الثانية والنصف وبعدئذ – وطبقا لأوامري – أرسل سابت فريتز ليفتش شاطئ الخندق، ولكني لم أكن هناك، فأسرع فريتز وأخبر سابت الذي أراد أن يركب بمنتهى السرعة عائدا إلى نارلنهايم كما قلت، لكن فريتز لم يشأ الإصغاء إلى الأوامر أو غير الأوامر، وعلى ذلك، أرسلت جماعة إلى تارلنهايم ليأتوا بالماريشال، بينما هاجم الباقون باب القصر الجديد، فاقتحموه في الوقت الذي كانت انطوانيت تطلق النار فيه على روبرت، وكان أول باب قابلهم هو باب غرفة ميكل، وهناك كان الدوق يرقد ميتًا، وعندئذ عبر سابت وفريتز القنطرة غير عالمين بما حدث لي أو للملك، لأن انطوانيت لم تستطع أن تخبرهم بشئ اللهم إلا أنها رأتني فوق القنطرة، وأخيرا وصلا إلى الغرفة الخارجية، ووجدا البلجيكي برسونين ملقي فوق الأرض وهو ميت، فقال سابت: "شكرا لله.. لقد كان هنا"، فلما عثر بريتشارد والطبيب والملك أيضا شبه ميت، ظنوا أولا أن كل شئ قد انتهى، ولكن سابت الذي كان يعرف كثيرا عن الجروح وعلامات الموت أكثر مني – أدرك أن الملك لم يكن مجروحا جرحا خطيرا، وأنه سيبرأ سريعا، وعندئذ أرسل فريتز ليبحث عني – لم يجرؤ سابت على إرسال أي شخص آخر– وأما كيف عثر على فريتز فقد سمعته أيها القارئ، فقد استرشد إلى مكاني بالصيحة التي بدرت مني وأنا أنادي روبرت ليقف، ولا أظن أن رجلًا سرّ لرؤية أخيه حيًّا كما كان سرور فريتز عندما وجدني.

بقي الآن التأكد من أن السر ظل وسيظل طي الكتمان، وقد أقسمت انطوانيت وجوهان ألا يقولا شيئا، وأذيع أن فريتز كان قد ركب وذهب للبحث عن صديق الملك الذي سجنه الدوق في قلعة زندا، وأما الملك –

بعد أن أنقذ صديقه – فقد جرح جرحا مميتا، ورقد في زندا، وقد أمرت الأميرة أن تبقى في تارلنهايم، حتى يستطيع الملك أن يأتي إليها، تلك كانت قصة سابت وقد صدقها الناس في كل مكان، وأما الشئ الوحيد الذي أخل بها فكانت تلك القوة التي طالما هزمت أشد الخطط دهاء – أعني رغبة المرأة – إذ مهما كان أمر الملك (أو أمر سابت بالنيابة عنه) فقد رفضت الأميرة فلافيا أن تبقى في تارلنهايم في حين كان حبيبها جريحا في زندا!، فبناء على ذلك استقلت مركبتها خلف الماريشال شتراكنتس الذي حاول دون جدوى أن يجعلها تبقى في المنزل، وهكذا وصلت إلى حدود الغاب حيث كنت لا أزال راقدا، وإذا أفقت من إغمائي، ورأيتها أدركت ما يجب على عمله، فحاولت أن اختبئ وراء أيكة (رغل)، ولكننا كنا قد نسينا الفتاة الفلاحة على كل حال فأسرعت نحو الأميرة وصاحت: سيدتي.. إن الملك هنا بين الأدغال!، فقال الماريشال شتراكنتس العجوز:

– حديث خرافة.. أيتها الطفلة.. إن الملك يرقد جريحا في القلعة هنا.

فقالت الفتاة:

– نعم يا سيدي، أعرف أنه جريح، ولكنه هنا مع الكونت فريتز فون تارلنهايم، وليس في القلعة قالت الفتاة ما رأته عيناها.. فابتسمت لها فلافيا وهبطت من مركبتها لترى ذلك السيد الذي يشبه الملك، وفي تلك اللحظة ظهر سابت – وكان قادما من القلعة – وحاول أن يقنع الأميرة لتستأنف رحلتها.

وقال:

– إن كل سيد جميل لهو ملك عند فتاة كهذه.

فصاحت الفتاة في عجب: كيف؟ إنه يشبه الملك كما تشبه حبة البزلاء أختها.

فراح وجه الماريشال يسأل أسئلة صامتة، بينا أخذت فلافيا أيضا تدور بعينيها، وبدأ الشك ينتشر بسرعة.

قالت فلافيا:

– سأذهب لرؤية هذا الرجل.

فهمس سابت:

– إذن تعالي وحدك.

وانقادت للهجته الغريبة، وطلبت إلى الماريشال والآخرين أن ينتظروا ثم أقبلت مع سابت سيرا على الأقدام إلى حيث كنت راقدا وأشار سابت للفتاة الفلاحة أن تبقى بعيدا، لم أستطع أن أنظر إليها، ودفنت وجهي بين يدي، فركع فريتز بجانبي ويده على كاهلي وصرخت فلافيا صرخة نصفها فرح ونصفها الآخر وجل: إنه هو! هل أنت جريح؟، وجلست بجانبي على الأرض.. وأزاحت يدي عن وجهي في رفق ثم قالت: إنه الملك! لماذا حاولت أن تخدعني الآن يا كولونيل؟، فلم يجبها أحد، وأما أنا فأرخيت عيني إلى الأرض وعندئذ وضعت ذراعها في ذراعي وأنشأت تقول: رودلف..

فقال سابت في صوت رقيق:

– إنه ليس الملك، وقرأت في وجه فيرتز الشاحب، إن تلك كانت الحقيقة.

فصاحت:

– لكن هذا هو رودلف، حبيبي.

– إنه حبيبك يا سيدتي، ولكنه ليس الملك، فإن الملك يرقد هناك في قلعة زندا.

فصاحت:

– أنظر إلي يا رودلف، لماذا تدعهم يقولون مثل هذه الأشياء؟

فزاد شحوب وجهها، ونظرت إلى سابت وإلى فريتز ثم إلي ثانية، وبعدئذ سقطت إلى الأمام فاقدة الرشد، فأرقدتها برفق فوق الأرض، وأنا ألعن حظي، لأن سيف روبرت تركني حيا لا تحمل هذا.

الفصل الثالث عشر

كان الوقت ليلا، وكنت في الغرفة الصغيرة التي سجن فيها الملك، فقد أحضرني فريتز إلى هنا سرًّا، ومنذ لحظة جاءت جوهان بطعام العشاء وأخبرني بما كان يحدث في القلعة، كانت الأميرة قد قابلت الملك، ثم قضت هي وسابت وفريتز وكذلك الماريشال "الذي أخبر بالقصة" وقتا طويلا في المناقشة، وأما خارج القلعة، فقد تواترت قصص عجيبة عن سجين زندا الغامض.

قال البعض إنه مات، وقال آخرون أنه اختفى، وقال فريق آخر أنه كان صديقًا أسدى للملك خدمة جليلة أثناء رحلاته في انجلترا، فلما سئمت حديث جوهان، صرفته، ثم جاء فريتز لزيارتي، وقال أن الملك يريد مقابلتي، فعبرنا القنطرة، ونفذنا إلى الغرفة التي كانت غرفة بلاك ميكل، كان الملك راقدا فوق الفراش، وقال الطبيب (وكان صديق فريتز من تارلنهايم) أن الزيارة يجب أن تكون قصيرة وبسط الملك لي يده ثم هز يدي، بينما انسحب فريتز والطبيب لي النافذة، فأخذت خاتم الملك من أصبعي ووضعته في أصبعه وقلت: لقد حاولت ألا أحط من قدره يا مولاي.

فقال في صوت ضعيف: ليس في استطاعتي أن أتكلم كثيرا لقد أردت أن أستبقيك هنا معي ولكن سابت والماريشال يقولان أن ذلك مستحيل وأن السر يجب أن يبقى طي الكتمان.

– إنهما على حق يا مولاي، دعني أذهب، إن عملي هنا قد انتهى.

– نعم، إنه انتهى كما لا يستطيع أي إنسان غيرك أن يهبه فعندما يراني الناس ثانية، سأكون قد أطلقت لحيتي، وسأكون قد تغيرت بسبب المرض ولكني سأحاول ألا أجعلهم يلحظون تغيرًا فيما عدا هيئتي ثم أنك أريتني كيف يكون الملك، وأغمض جفنيه، كان متعبا، فقبلت يده بينا جاء فريتز ليقودني إلى الخارج، ولم أره قط بعد ذلك.

وفي الخارج، لم ينعطف فريتز في الطريق الذي جئنا منه وإنما سلك طريقا آخر.

فسألته: إلى أين نحن ذاهبان؟

– لقد أرسلت في طلبك، فعندما تنتهي مقابلتكما، عد إلي القنطرة ثانية فسأنتظرك هناك.

فسألت لاهثا:

– وماذا تريد؟

فهز رأسه:

– هل هي تعرف كل شئ؟

– نعم، كل شئ.

وفتح بابا، ودفعني إلى الداخل برفق، ثم تركني، وكانت الغرفة فاخرة الرياش، وفي منتصفها وقفت الأميرة، فسرت إليها، ثم ركعت فوق ركبة واحدة وقبلت يدها، وعندئذ – قبل أن أعرف ماذا كنت أقول – بدرت مني هذه الكلمة: فلافيا، فانتفضت قليلا، ووقفت وواجهتها، فصاحت:

– لا تقف لا تقف! لا يجدر بك ذلك، أنت جريح، اجلس هنا على هذه الأريكة.

وأجلستني برفق، ووضعت يدها على جبهتي، وقالت:

– ما أشد حرارة رأسك!

لقد جئت لأتوسل إليها في طلب المغفرة، ولكن الحب يهب بطريقة ما – حتى الرجل الغبي – المعرفة بقلب حبيبه،وعلى ذلك كان هذا كل ما قلت:

– إني أحبك من كل قلبي وروحي!

– إذ ما الذي كان يزعجها ويخجلها؟ أليس حبها لي، وإنما هو الخوف من إني أدعيت الحب لها، كما قمت بدور الملك زورا.

قلت مكررا:

– أحبك! لن تكون لي امرأة أخرى في العالم، لكن ليغفر لي الله الخطأ الذي ارتكبته، فأسرعت تقول: لقد دفعوك إلى إتيانه، وما كان الأمر ليتغير لو أني علمت الحقيقة، لقد كنت أنت دائما الذي أحب، ولم يكن الملك أبدًا!

– لقد حاولت أن أخبرك

– هل تذكرين مقاطعة سابت لنا ليلة المرقص في سترلزو؟

فأجابت في صوت خافت:

– أعرف ذلك.. فقد أخبروني بكل شئ.

فقلت: – إنني راحل الليلة.

– لا.. لا.. لا..! ليس الليلة.

– يجب أن أرحل الليلة قبل أن يراني أناس أكثر، وكيف يمكنني أن أبقى؟

فهمست:

– لو أمكنني أن آتي معك!

فصحت بخشونة، وأنا ابتعد عنها:

– لا تفعلي.

فقالت:

– إنك على حق يا عزيزي رودلف، لو كان الحب كل شئ لتبعتك في أسمال بالية إلى أطراف المعمورة، لكن هل الحب هو الشئ الوحيد؟ لو أنه كان كذلك، لتركت أنت الملك يموت في السجن، فهمست: لقد كدت أفعل ذلك.. يا فلافيا.

– ولكن الشرف لم يجعلك تفعل، إن الشرف يقيد المرأة أيضا يا رودلف وشرفي هو في بقائي مخلصة لوطني، سألبس خاتمك على الدوام.

فأجبت:

– وأنا أيضا سالبس خاتمك وفارقتها، وسمعتها تنطق باسمي المرة تلو الأخرى.

ونزلت في سرعة إلى القنطرة، وكان سابت وفريتز هناك وكانا قد أحضرا لي بعض الثياب فأبدلت ثيابي ثم غطيت وجهي كما فعلت أكثر من مرة من قبل، وركبت معهما، وانطلقنا في القارب، حتى وصلنا إلى محطة جانبية صغيرة في الناحية الأخرى من الحدود، وكان علينا أن ننتظر القطار فرحنا نتحدث بأصوات خافتة عن هذا وذاك، وعندئذ خلع فريتز قبعته فجأة، وأمسك بيدي ثم قبلها قبل أن أستطيع أن أحول دون ذلك.

وقال وهو يحاول أن يضحك:

– إن السماء لا تجعل دائما من الرجال الإكفاء ملوكا

وقوس سابت العجوز فمه وهو يصافحني، ثم قال:

– إن للشيطان نصيبه في أغلب الأشياء.

وجاء القطار فركبت، وكان بعض الناس على مقربة، فراحوا ينظرون إلينا باستغراب، بينا كان سابت وفريتز يمسكان بقبعتيهما في أيديهما يودعانني، وربما ظنوا (أي الناس) أن رجلا عظيما يسافر سرًّا، ولكن كم كانت تكون خيبتهم عظيمة لو علموا أن المسافر هو أنا – رودلف راسنديل – الابن الأصغر لعائلة انجليزية، ومع ذلك فمهما كنت وقتئذ فقد كنت ملكا لثلاثة شهور، وربما كان عدم تفكيري في المغامرة إنما مرجعه ما خيل إلي – حين بدأ القطار يبتعد عن رومايتانيا – من أنني أسمع صيحة حب امرأة يحملها الهواء إلى قلبي – "رودلف ! رودلف" إني مازلت اسمعها الآن.

* * *

أما تفاصيل عودتي إلى الوطن، فلا تحوي إلا قدرا تافها من الأهمية، ذهبت إلى الألب مباشرة وقضيت عشرة أيام هناك في هدوء، وأرسلت في إهمال ظاهري بطاقة بريد إلى أخي روبرت أخبره فيها بقرب عودتي، ثم تركت لحيتي لتنمو ثانية.

وعندما مررت بباريس، قابلت صديقي ثانية، كان واثقا من أنني ذهبت إلى روريتانيا في أثر انطوانيت دي موبان، التي أخبرني أنها عادت إلى باريس، وقد أراد أن يعرف ما أعرفه من قصة هجوم بلاك ميكل على الملك، إذ قال أن لا أحد يستطيع أن يصدق ما قرأوه في الصحف، ولكنه لم يستطع الحصول على معلومات مني.

وعندما عدت إلى الوطن، كانت روز غاضبة جدا، لأنني لم أكتب كتابا، وحتى لم أجمع أية مذكرات، قالت:

– لقد أضعنا وقتا كثيرا في محاولة العثور عليك.

فقلت:

– أعرف ذلك. ولكن لماذا؟ في استطاعتي أن أتكفل بأمر نفسي.

فأجابت:

– لم نبحث عنك لذلك، ولكني أردت أن أخبرك عن السير جاكوب لوروديل، لقد أصبح سفيرا وهو على استعداد لأن يأخذك ملحقا بالسفارة.

– وإلى أين هو ذاهب؟

فقالت روز:

– إلى سترلزو، وفي اعتقادي أنها مدينة ظريفة جدا.

فقلت بشئ من التصميم:

– لا أزن أني أريد الذهاب.

فقالت ملحة:

–ربنا تصير أنت بنفسك سفيرًا.

– لا أريد أن أصير سفيرًا.

فقالت وقد أغضبها رفضي:

– هذا أكثر مما ستكونه على الإطلاق.

هذا محتمل جدا، وقد أخرج أخي روبرت صحيفة مصورة وكانت فيها صورة لحفلة تتويج في سترلزو، فجلست صامتًا أنظر إليها، كان سابت واقفا بجانبي بينا وقف الماريشال وفريتز خلفي، كذلك رأيت الكردينال، وبلاك ميكل، والأميرة.

قال أخي وهو ينظر إلي بفضول:

– إن التشابه عجيب!

ثم نظر إلى صورة الملك، فلم أقل شيئا، إذ على الرغم من أن روبرت كان من أحسن الأشخاص في الدنيا، وأنه كان في استطاعتي أن أفضي إليه بسر، فإن هذا السر لم يكن سري، ولذا لم يكن في استطاعتي أن أخبره به، لم أعش في هدوء منذ ذلك الوقت، ولكنني على كل حال اذهب مرة في

السنة إلى مدينة صغيرة في هذه الناحية من الحدود الروريتانية، وهناك أتقابل مع فريتز الذي صار الآن سعيدا بزواجه من الكونتس هلجا، ثم نقضي أسبوعا معًا، فأسمع كل أنباء سترلزو، وكثيرا ما نتحدث عن سابت والملك والشاب روبرت، وعندما يأتي المساء نتكلم أخيرا عن فلافيا، إذ في كل عام يأتيني فريتز بورود حمراء، حولها قصاصة من الورق كتبت عليها هذه الكلمات: "رودلف – فلافيا – إلى الأبد" فأرسلها إليها تلك التي أصبحت الآن ملكة روريتانيا – وستظل أبدا ملكة قلبي.

مازلت أتدرب على لعب السيف، إذ أني أشعر بأنني سأقابل روبرت الصغير ثانية، وسننهي قتالنا الذي قطع في غاب زندا المعتم البارد، من يدري!

الفهرس